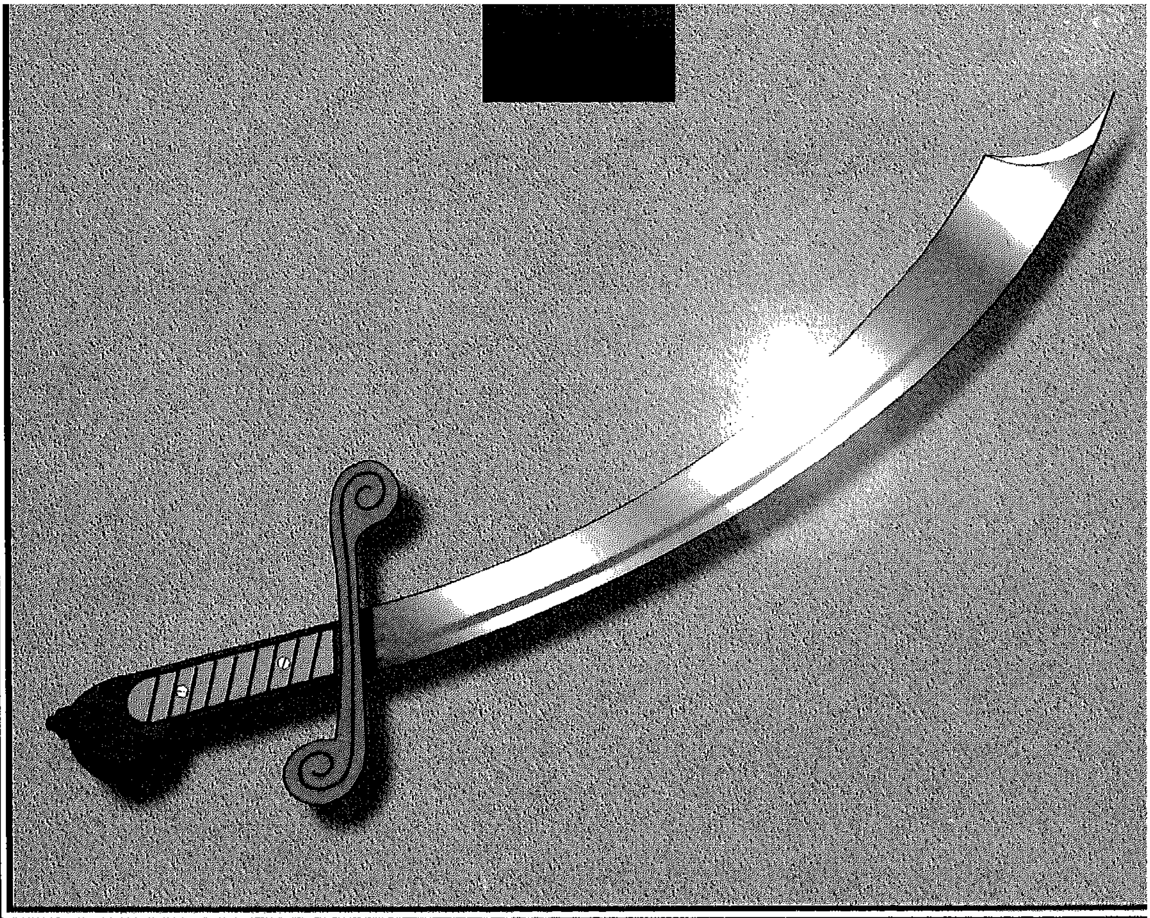

المتآمرون على المسلمين
الشيعة

من معاوية إلى ولاة الفقة

الإمام المجدد/ الدكتور **موسى الموسوى**

تصدير المفكر الإسلامي أ. د/ **إبراهيم بسيوني**

Bibliotheca Alexandrina
0123230

المتآمرون على المسلمين الشيعة

الكتاب: المتآمرون علي المسلمين الشيعة
من معاوية إلي ولاة الفقه
الكاتب: الدكتور الإمام موسى الموسوى
الطبعة: الأولي ١٩٩٥
الثانية١٩٩٦
الناشر: مكتبة مدبولى
القاهرة -طلعت حرب
ت:٥٧٥٦٤٢١
الغلاف: الفنان محمد لطفى
الجمع التصويرى: إى. إم. جرافيك
ت:٢٨٤٢٢٤٤

المتآمرون

على المسلمين الشيعة

من معاوية إلى ولاة الفقه

الإمام المجدّد

الدكتور موسى الموسوى

صدَّر له المفكر الإسلامى

أ. د. إبراهيم بسيونى

مكتبة مدبولى

الطبعة الأولى ١٩٩٥

الطبعة الثانية ١٩٩٦

حقوق الطبع والنشر محفوظة

لمكتبة مدبولى

ميدان طلعت حرب

القاهرة ت: ٥٧٥٦٤٢١

تصدير

بقلم الدكتور/ ابراهيم بسيونى

تفضَّل العلامة الدكتور / موسى الموسوى بإهدائى مشكوراً نسخة من الطبعة الأولى لكتابه(المتآمرون على المسلمين الشيعة- من معاوية إلى ولاة الفقه) وعندما اقترحت عليه أن يعاود طبعه ونشره فى مصر والبلدان العربية وأن يأذن لى فى إجراء بعض التنقيح والتصحيح للطبعة المذكورة. لم يتردد، ووافق على المطلبين.

وأنا حينما أتولى عنه تقديم هذا الكتاب لمنطقتنا فإنما أشعر بالاعتزاز لأنى أعلم أنه تتمة لجهوده الرائعة فى الفكر الدينى بعامة والشيعى بخاصة. فمنذ أكثر من خمس سنوات ولايكاد يمر عام حتى يفاجئ قراءه بعمل جديد مبتكر، وتستطيع- ياعزيزى القارئ - أن تحدد مهمة هذه السلسلة من عناوينها (الشيعة والتصحيح) و(عقائد الشيعة) و (الثورة البائسة) و(الجمهورية الثانية) ثم (المضطهدان: شيعة العراق وشيعة إيران). . وأخيراً هذا الكتاب الذى بين يديك .

واضح من استعراض هذه العناوين أن الرجل يشعل وحده ثورة فى الفكر الإسلامى لم يحدث لها نظير منذ عهد بعيد. فهو بهذا من أحسن الردود على أولئك الذين يزعمون أن ينابيع الفكر والاجتهاد فى الإسلام قد جفَّت إلى الأبد .. إذا أضفت إلى هذا أنه بحكم إنتمائه إلى المذهب الشيعى، بل إن أسرتة تحتل مركز القيادة فى هذا المذهب أدركت خطورة صنيعه فى مجال الحقيقة، وأيقنت أى مخاطر احتملها، ووقفت على صحوة ضميره العلمى وضميره الأخلاقى. .وعرفت من

أى المعادن هذا الباحث الذى ستقرأ له.

أتصور الآن أنه لو أحسن الناس استقبال هذا الكتاب وأخواته فإنهم يحسنون إلى أنفسهم وإلى الحقيقة وإلى عقيدتهم . . فى نهاية الأمر. وأتصور أن أحكاماً تلوكها الكتب والألسنة عبر الأجيال سوف تتوارى، وأن أحكاماً جديدة سوف تطل بوجهها وتطرح نفسها. ثم تفرض نفسها. وأتصور أن ذلك كله سيصاحبه تغيرات فى مجالات السياسة والثقافة والأكاديمية والاجتماع بل فى العلاقات الدولية.. ولست أسرف فى هذا التصور لأننا نعلم أن ماله علاقة بالتدين والعقيدة شديد الاتصال بكل الأمور الحياتية للناس سواء أكانوا حكَّاماً أم محكومين. . فى عالم يوشك أن يكون قرية صغيرة.

قد تبدو ثورة الموسوى الإصلاحية وقد انطبعت بطابع الهدم ولكن السؤال المتمهل هنا : أى هدم؟

والجواب أنه هدم لأوضاع وأحكام زائفة أخذت موقعها فى التراكم التاريخى حتى أعطاها الزمن، وبخمد العقول، وابتزاز ذوى المصالح من الطغاة، ومن المُرتدين عباءات التدين والذين بدل أن يكونوا هداة صاروا جُباة، والتف حول هؤلاء وأولئك أحجام هائلة من المرتزقة المضللين. . وكلهم .. كلهم أمسكوا برقاب أفراد هذه الأمة اليائسة، فخنقوها منذ عهدٍ مبكر!! حتى أصبحت كغُثاء السَّيْل!

وإذاً فالهدم فى ثورة الموسوى مقدمة لبناء شامخ هدفه هذا الإنسان المسلم البسيط كى يعيش يومه وغده فى كنف إسلامه الصحيح، وبكلمات أخرى فى كنف جو صحى تملؤه الحرية والسيادة، والعدل والمساواه والإخاء . . وما يتصل بذلك من القيم الرائعة التى يشهد الباحثون من كل أقطار الأرض أن الإسلام قد دعا إليها منذ أربعة عشر قرناً، وأنه بها قد خلَّص الناس من الظلم والظلمات، لأنه سعى إلى الناس وسعت إليه الناس للخلاص من البطش والضلال والابتزاز والاستعباد. فالموسوى

بهذه الثورة التصحيحية يقول لمن أساء فهم الإسلام من مواطنين وأجانب إنكم عرفتم شيئاً قد تسرب إليه التشويه والمسخ، وآن أن تمتلئ أبصاركم وبصائركم بحقائق دين الله كما أراده الله!

والموسوى بهذه الثورة التى تريد أن تخلص البيت الشيعى مما أصابه وهو أعلم الناس بما أصابه بحكم اقترابه من المصادر الأساس له ستدنو به من توأمه البيت السُنىّ حثيثاً، وسيتلاقيان ويصيران بنيانا(واحداً) تقوى دعائمه، وترتفع طوابقه، ويكبر صحنة، وترفرف فوقه أعلام (التوحد) و(التوحيد). . ولن يتردد فى جنبات هذا البيت الواحد صوت حاكم طاغٍ، ولاصفقات تاجر يتدثر باسم الدين كى يمتص الجيوب، ولسوف تختفى كل الأقنعة لأن دعاوى ارتدائها سوف تتساقط. . لأن الموسوى قد وضع إصبعه على الداء . .وشخّص الدواء.

# # #

ونحن – مع اختلافنا مع المؤلف فى بعض مواقفه وتحليلاته – إلا أننا كما قلنا عنه فى مقال سابق ننظر إليه على أنه قام فى ثورته الإصلاحية بنفس الدور الذى قام به الفيلسوف الألمانى مارتن لوثر فى ثورته البروتستية الاحتجاجية ضد هيمنة الكنيسة فى العصور الوسطى الأوربية والتى كانت عاملاً منشطاً للإصلاح الدينى فى عصر النهضة. ولهذا يجب علينا أن نأخذ صنيعه مأخذ الجد فنعقد المؤتمرات التى تضم أعلام أهل الشيعة وأهل السُنة، ونناشد الجامعات ومعاهد العلم ووسائل الاستنارة لتناقش دعاواه فى حرية ودون تعصب،ونخرج من ذلك كله برصيد معرفى نقوم به أخطاء الماضى والحاضر ونهيئ أنفسنا – وبالتالى عوام المسلمين لمستقبل مشرق خالٍ من الحقد والسخيمة والكراهية ومفاهيم (المخالفة) والابتزاز والطغيان. . وبهذا نأخذ مكاننا اللائق على هذا الكوكب، أمةً واحدةً وعقيدة واحدة. . ولسوف نحسد أنفسنا أن الله سبحانه قد أطال فى أعمارنا حتى شهدنا عصر

الانسجام الدينى الباعث على حياة حرة كريمة. . وعندما نُغيِّر أنفسنا فى ضوء ذلك . . فإن الله سبحانه سيغيِّر حالنا إلى الأفضل والأمثل.

###

أما الموسوى الإنسان. . فإننى أقول له «إن العلماء ورثة الأنبياء» كما قال رسولنا الأعظم. وعليهم أن يحتملوا فى سبيل دعوتهم مما احتمل الأنبياء، ولأنْ يهدى الله بُك إنساناً خير لك من الدنيا وما فيها.

أقول هذا وأنا أعلم أنه قد تعرض للتشريد والسجن. بل أكثر من ذلك فإن فى جسده بقايا رصاصات خائنة حاولت تصفيته جسدياً، ولم يزده ذلك إلا إصراراً على محاربة أعتى الطغاة من الحُكَّام. . وإنى على ثقة أنه فى خندقه سوف تحميه صدور الملايين الذين يدينون بإخلاصه فى دعوته، والله سبحانه كافٍ عبده الذى يختاره للتصدر إماماً للخير والحق والجمال. . .

فيأيها الفارس النبيل . لقد أدَّيْتَ الأمانة، وما عليك بعد ذلك من تثريب . . ويكفيك أن تسمع قول إمامنا العظيم على بن أبى طالب كرَّم الله وجهه: «لا يُسَأل الجهلاء لما لم يَعْلَموا وإنما يُسألُ العلماءُ لِما لَمْ يُعلّموا» وأنت قد علّمت، وأشهدتَ. فطبْتَ حَياً وميتاً والله ناصرك. . وهو القوى العزيز.

مقدمة وتمهيد

بسم الله الرحمن الرحيم

اللهم إنى أحمدك حمد الشاكرين، وأصلى وأسلم على محمد المبعوث للعالمين، وعلى آله وصحبه أجمعين.

وبعد... فلأول مرة فى تاريخ الأمة الإسلامية وتاريخ الفكر الإسلامى، والصراع الدائرة رحاه بين السّنة والشيعة وقراءة المئات من المجلدات التى ألفت حول الإمامة والخلافة، منذ ألف ومائة عام، نصل إلى نتائج خطيرة تقلب موازين الصراع بين الفريقين رأسا على عقب. ولست أبالغ إذا أعلنت بكل صراحة ووضوح أنّ النتائج الخطيرة التى وصلْتُ إليها بعناية ربانية وتوفيقات سبحانية، وبعد نصف قرن من البحث والاستقصاء والتعمق والتوفيق، فيما خلّفه لنا علماء الفريقين فى كتبهم، عبر القرون قد خَفِيَتْ على كثير من أعلام هذه الأمة، ولاسيما الذين بذلوا جهدا حثيثا فى تأليف الكتب التى تبحث عن الإمامة والخلافة، حتى هذه اللحظة من عمر الزمان.

إن النتائج الخطيرة التى وصلنا إليها. وها نحن نبحثها فى هذا الكتاب بشىء من التفصيل تدور حول ثلاثة محاور، كان لكل محور آثاره الخطيرة فى مسيرة هذه الأمة سّنة وشيعة.

فلو أن المسلمين منذ ظهور المؤامرة الكبرى على كيانهم فى أوائل القرن الرابع الهجرى التى أدت إلى هذا الانقسام الخطير بين صفوف الأمة الواحدة أدركوا عِظَم المؤامرة وتفادوها لوفروا على الأمة الإسلامية جهدا عظيما ودماء ونفوسا وأموالا لا تعد ولا تحصى.

ومع أننى لست على يقين من أن هذا الكتاب سيغيِّر المنهج الفكرى عند هذه الأمة بالسرعة التى تواكب العصر، لأن الرواسب التى ورثتها الأجيال منذ القرون وبقيت تتحكم فى العقول والقلوب لا تسمح لكلمة الإصلاح والحقيقة، أن تحل محل التعصب والإقرار بالحقيقة فإن هذا الكتاب وما يحتوى بين دفتيه من الحقائق لا بد وأن نهديه إلى الأجيال القادمة التى لم تزل فى الأصلاب الشامخة والأرحام المطهرة.

المحـور الأول : فى هذا الكتاب يدور حول الإمامة والخلافة، ونحن نثبت بصورة واضحة لا شك فيها ولا جدال، أن المسلمين الأوائل بعد وفاة رسول الله (ص)، حتى أوائل القرن الرابع الهجرى، كانوا يعتقدون فى الخلافة والإمامة على أنهما منصبان مختلفان، وذلك تنفيذاً للنص الدستورى «القرآن الكريم» و «متمم الدستور» ؛ حديث رسول الله (ص) ووصيته. فالخلافة كانت تعنى «القيادة السياسية» المنصوص عليها فى القرآن الكريم بقوله تعالى:

(وَالَّذينَ استجابوا لِربِّهِمْ وَأقامُوا الصَّلوة وَأمْرُهُمْ شورَى بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنهُمْ يُنْفِقونَ)(١).

(فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كنتَ فَظّاً غليظَ القَلْبِ لا نْفَضّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِر لَهُم وَشاوِرْهُمْ فِي الأمْرِ...)(٢).

والإمامة كانت تعنى «القيادة الروحية»، وقد فرضت بالوصية وأنيطت إلى الإمام على نصاً ثابتاً فى أحاديث متواترة :

١- الشورى : ٣٨.
٢- آل عمران : ١٥٩.

«تركت فيكم الثقلين أحدهما أكبر من الآخر، كتاب الله وعترتى فانظروا كيف تخلفونى فيهما فإنهما لن يفترقا حتى يردا عليّ الحوض»[1].

و«القيادة السياسية» كانت تتم بانتخاب الأمة لقائدها السياسى بالشورى، ومنحه صلاحيات الخلافة التى كانت إدارة دفة الحكم والسياسة وتدبير قواعد الدولة وتقرير شئون الحكم التى تتعلق بالجانب المادى والعملى والسياسى فى الحياة الاجتماعية. أما «القيادة الروحية» فهى الاهتمام بالجانب الروحى والمعنوى فى الأمة وبيان أحكام الله وشريعيه والاهتمام بكل ما يتعلق بالجانب الروحى فى الإنسان. فالإسلام دين يضمن سعادة المجتمع ماديا ومعنويا، فالخليفة يتولى شئونها الروحية والمعنوية، وهذه القيادة حصرها رسول الله (ص) فى الإمام على وأئمة أهل البيت، ونصت عليها الأحاديث المتواترة فى كتب الفريقين.

وهكذا شاءت العدالة الإلهية أن تمنح الإنسان الذى يولد بلا خيار ويموت بلا خيار، حرية تقرير المصير بين الحالتين اللاإراديتين، ليوفر عليه ما لم يمنح عند الولادة والموت معا. وعلى هذه السيرة العظيمة سار السلف الصالح من أمة محمد ﷺ، واستمرت الأمة الرشيدة فى الساحة بعد وفاة رسول الله (ص) تنتخب الخليفة وتحاسبه وتنتقده وتأخذ عليه ما تراه غير وارد أو غير صحيح، حتى أن قال أحدهم للخليفة عمر بن الخطاب :

«إذا رأينا فيك اعوجاجا قوّمناك بالسيف»

---

١ – أخرجه الحاكم في مناقب علي من مستدركه ص ١٠٩ مجلد ٣، وروته كتب المسانيد على اختلاف في العبارات

وأما الإمامة فكانت للإمام علي وكان يقود الأمة روحيا ومعنويا، وعبر عمر بن الخطاب عن تلك القيادة بقوله :

«لولا عليّ لهلك عمر»

وقال في مكان آخر : «علي أقضاكم»

والإمام علي يعبر عن قيادته الروحية قائلا :

«ولقد كان يجاور رسول الله (ص) في كل سنة بحراء فأراه ولا يراه غيري. ولم يجمع بيت واحد يومئذ في الإسلام غير رسول الله (ص) وخديجة وأنا ثالثهما، أرى نور الوحي والرسالة، وأشم النبوة ولقد سمعت رنة الشيطان حين نزل عليه الوحي (ص)، فقلت يا رسول الله ما هذه الرنة، فقال هذا الشيطان أيِس من عبادته، إنك تسمع ما اسمع، وترى ما أرى إلا انك لست بنبي، ولكنك وزير وإنك لعلى خير[1]».

واستمرت الأمة على هذه الحالة الرفيعة من الرقي الفكري والاجتماعي تسير في ظل القيادتين، حتى عام ٤١ هجري وهو العام الذي تنازل الإمام الحسن فيه عن الخلافة لمعاوية بن أبي سفيان، صونا لدماء المسلمين، ومع أن الإمام الحسن جعل في شروط هذا التنازل أن تكون الخلافة بعد موت معاوية بالشورى. حيث تختار الأمة من تشاء، إلا أن معاوية خان الشروط كلها وعمل جاهدا للقضاء على الخلافة والإمامة معا، فقد جعل الخلافة ملكا عضوضا في وريثه، وبذلك قضى على النص الدستوري في القرآن الكريم «الشورى» ومر بسب الإمام علي على المنابر، والبراءة منه للقضاء على

١- نهج البلاغة.

«العترة» وحرمتها، إنهاء لأمر الرسول ووصيته فى الإمامة. وبذلك قضى على الثقلين اللذين خلفهما رسول الله (ص) فى أمته.

غير أن كل ما فعله معاوية ومن بعده ابنه يزيد الذى أراده أن يكمل رسالة أبيه فى القضاء على الإمامة والعترة النبوية بالتصفية الجسدية فى يوم عاشوراء، حيث لم يسلم من تلك المذبحة الفظيعة إلا الإمام على بن الحسين الملقب بالسجاد، الذى كان مريضا ومسجى فى الفراش. مع كل هذا فإن المنهج الفكرى لدى الأمة الإسلامية بقى ثابتا فى عقيدتها فى الخلافة والإمامة حتى أوائل القرن الرابع. حيث ظهرت فكرة المزج بين الخلافة والإمامة على الساحة الإسلامية، بمؤامرة من الخلافة العباسية. التى كانت على شفا حفرة من السقوط والانهيار، كما كان البويهيون الذين استولوا على أجزاء من إيران فى عام ٣٢٢ هجرى، وأرسل الخليفة الراضى الخلع واللواء إلى مؤسس دولتهم عماد الدولة، ومن ثم استيلاء هذا الأخير على بغداد عام ٣٣٤ هجرى وتغلبه على المطيع لله العباسى، كان لهم درو كبير فى التعاون مع الخلافة العباسية لإيجاد حالة خطيرة فى المجتمع الإسلامى آنذاك تفرق بين الأقلية المعارضة التى كانت آنذاك تدعوا إلى العودة إلى عهد السلف الصالح والشورى، وكانت مضطهدة باسم «شيعة أهل البيت» وبين الأكثرية الإسلامية التى كانت القاعدة لتلك القمة. وكانت وراءها وتساندها حتى ذلك التاريخ.

ولا شك أن البويهيين الذين كانوا يستفيدون من التفرقة بين الأقلية والأكثرية، وكان ضرب الشيعة بالسنة فى مصلحتهم لإضعاف الخلافة الحاكمة، وسيطرتهم المطلقة على البلاد، يؤيدون كل ما كان يعزز حكمهم، ، فلذلك لا نتعجب أبدا أن يقف فى هذا الخندق بعض مشايخنا من الشيعة مساندين ومؤيدين لفكرة المزج بين الخلافة والإمامة كى يحدث ذلك الأمر الخطير الذى سينبئك عنه هذا الكتاب.

المحور الثـانـي : فهو يكشف المؤامرة على إمامة أهل البيت والإمام المهدى على وجه الخصوص. الذى تنتهى قيادته الروحية بمؤامرة «تطويق الغيبة» بالصورة التى حصلت عام ٣٢٩ هجرى. حيث إن هذا المؤامرة كانت تعتبر ضرورية لتثبيت فكرة المزج بين الإمامة والخلافة، وما يترتب عليه من آثار. فعدم وجود إمام من أئمة أهل البيت فى الساحة الإسلامية الكبرى يقوم بالدور القيادى الحاسم، كان يضمن تثبيت المؤامرة على الأمة الإسلامية التى كان ضحيتها الكبرى الإمام المهدى أولا، ثم الشيعة ثانيا ثم الأمة الإسلامية على العموم فى آخر الأمر.

ولأول مرة نكشف سراً خطيراً لم يشر إليه المؤلفون في الإمامة والخلافة عبر القرون، وهو أنهم لم يشيروا قط فى ابحاثهم إلى الموضوع الذى له صلة مباشرة بحياتنا اليومية، ليل ونهار، وهو الحلقة المفقودة التى لو اكتشف أمرها وعرفتها الشيعة، لا نقلبت كل الموازين عندهم رأسا على عقب. لقد كان جهد المؤلفين كله منصبا على إثارة أمور لا صلة لها بواقعنا الذى نعيش فيه، والكتب التى ألفها علماء الشيعة والسنة تدرو حول المحور الذى تتفاعل الشيعة معه عقيديا وعاطفيا، إنه الخوض فى بحث الإمامة والخلافة بمقياس واحد ومن نقطة انطلاقية واحدة. وهكذا فإن الصراع يدور حول أعماق التاريخ على أسس مصنوعة فرضت علينا، لصرف الأفكار عن الحقيقة الكبرى. أما الخوض فى المسألة التى تتفاعل معها الشيعة عمليا ليل ونهار فجعلوها خارج القوس، لأن الخوض فيها ينسف أساس الزعامات الشيعية المذهبية ويؤدى إلى كشف صراع رهيب خاضته المرجعية الشيعية المذهبية، لطمس صلاحيات الإمام المهدى والقضاء على فلسفة الغيبة وأثر وجود الإمام فى الساحة الإسلامية واغتصاب صلاحياته، وبعبارة أكثر وضوحا، فإن البحث عن الإمامة والخلافة فى آلاف الكتب التى ألفت، من عصر الشريف المرتضى من أوائل القرن الخامس الهجرى، ومن ثم فى عصر الشيخ الطوسى، الذى أخذ المذهب

الشيعى فيه يتبلور ضمن أسس جديدة، وفى ظل مرجعية شيعية مستمرة حتى اليوم، لم نجد كلمة واحدة عن «تطويق الغيبة» ولا عن تلك الحلقة المفقودة فى تلك الغيبة، لأنها كانت تكشف المؤامرة الكبرى على أئمة أهل البيت. ولا سيما الإمام المهدى.

وأقول مرة أخرى إن الكتب التى ألفت فى الإمامة والخلافة عبر ١١ قرنا – كلها اهتمت بالجانب العاطفى وإيجاد حالة من العطف حول الخلافة بعد رسول الله (ص) ومزج الخلافة بالإمامة لصرف الأنظار كلها عن تلك المؤامرة الخطيرة التى اكتشفناها وأوضحناها ورفعنا الغطاء والحجاب عنها، لأول مرة فى تاريخ التشيع.

إننا أثبتنا فى هذا البحث، لماذا كان فقهاؤنا نحن الشيعة الإمامية، وأعلامنا ومشايخنا تسعى جاهدة لتثنى أفكار الشيعة عن ذلك الموضوع الذى يتفاعل مع واقعهم اليومى، وتجره إلى إعماق التاريخ، وتلقى عليه دروسا ومحاضرات فى أمور لا علاقة لها بواقعها اليومى، ألا وهو البحث عن الإمامة والخلافة بالصورة التى كانوا يرسمونها بعد وفاة الرسول (ص).

إن السبب فى ذلك الأمر، كان يعود كله إلى إخفاء تلك المؤامرة التى نسميها «بطوق الغيبة» والتى لو عرفتها الشيعة لأنهت المرجعية التى تسير وراءها منقادة لها، وهذه المرجعية تدعى نقل صلاحيات الإمام إليهم ووجوب الإطاعة لهم.

إن مؤامرة «تطويق الغيبة» لو كشف الغطاء عنها قبل هذا اليوم لعادت المرجعية الشيعية إلى حجمها الطبيعى، لا هيمنة ولا تصرف فى الأموال الشرعية باسم الخمس ونيابة الإمام، ولا ولاية للفقيه ولا ولا، وقد أصبح الشيخ الشيعى كالشيخ السنى يبين حكم الله بدون أن يكون كرسيه على هامة الشيعة، وبذلك لايسمح أحد ألقابا تقشعر

من سماعها الأبدان مثل «آية الله»، «حجة الإسلام» وأمثالهما، ولن يحدث الصراع الذى ورثناه جيلا بعد جيل باسم الخلاف بين السنة والشيعة، والذى اشترك فى إثارته مشايخ الفريقين.

واخيراً فإن هذا الكتاب سيجيب على هذا السؤال الخطير الذى يكشف لنا أبعاد المؤامرة : لماذا أُلّفت المئات من المجلدات والموسوعات، بل الآلاف حول الإمامة والخلافة على نهج واحد وتفسير واحد! بينما الكتب التى ألفت فى الإمام المهدى، ونقل صلاحياته إلى من بعده من الفقهاء وتطويق الغيبة، لا يصل إلى واحد بالمائة من الكتب التى أُلّفت فى الإمامة والخلافة! لماذا هذا العزوف عن أهم القضايا التى تتفاعل مع حياتنا نحن الشيعة الإمامية؟ لماذا ترك المؤلفون وأعلامنا؟ الحاضر الذى نعيش فيه وتمسكوا بالماضى السحيق؟!

المحور الثالث : هو أننا نثبت بصورة قاطعة أن كل البدع التى ألصقت بعقيدتنا نحن الشيعة الإمامية، وكل التجاويف والتجاعيد التى أضيفت إلى عقائدنا إنما دخلت بمؤامرة أموية – عباسية باركها البويهيون وبعض مشايخنا وكثير منها ألصقت بنا فى السنوات تلت «تطويق الغيبة» ونجاح المؤامرة على الإمام المهدى آخر أئمة أهل البيت، وبذلك يدفع الشيعة الإمامية ضريبة مؤامرة أموية عباسية بويهية أضاف عليها الصفويون، أستطاعوا إلى الإضافة – سبيلا، ولا نحن ولا السنة عرفنا أبعاد تلك المؤامرة التى كانت مؤامرة على السنة والشيعة معا، ناهيك من أنها لم تمر بخلد أحد حتى الآن، ولم تشر إليها الكتب والمؤلفات التى ألفت عبر التاريخ.

ومع أننى أعلم مسبقا أن حلفا غير مقدس سيجمع بين كثير من مشايخنا وبعض مشايخ السنة للتنديد بما يحتويه كتاب «المتآمرون» إلا أننى اشكر الله تعالى، فلقد تجاوزت

عقدة الاهتمام بفئة مصالحها الحيوية تتوقف على هدم كل السبل التى توحّد الأمة الإسلامية، وتنهى الفرقة والعداء بين الأمتين، فها أنا أخاطب فى هذا الكتاب الأفكار اللامعة، والعقول النيّرة التى تستجيب لفهم الحقيقة ودركها، وأحثهم على استنباط الحقائق من بطون الكتب وأعماق التاريخ، ودراسة حياة المسلمين الأوائل فى عصر الرسول (ص) وبعده، وأن يخرقوا الحجاب الذى ضرب على العيون والعقول معا.

وأخيراً فها أنا أطمئن كل الاطمئنان إلى أن الأمة الإسلامية شيعة وسنة ستجتمع على الإقرار والقبول والاعتراف بما يتضمنه هذا الكتاب وعلى ما جاء بين دفتيه، إن لم يكن اليوم فغداً، وإن غدا لناظره قريب.

رسول للناس

﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيراً وَنَذِيراً وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾(١).

بعث الله محمداً فى عصر كانت البشرية غارقة فى ظلام دامس، وكان يحكم الأكثرية الساحقة من المجتمع البشرى نظامان استبداديان جائران، لا وجود ولا أثر للقيم الإنسانية فى ساحتيهما. كان يحكم الشرق الشاهنشاه الفارسى، وكانت بلاده ممتدة من العراق حتى بخارى، وكانت تحكم الغرب الروم الشرقية المتمثلة فى هرقل، الذى كانت بلاده ممتدة من فلسطين وسوريا حتى منتصف أوروبا وأجزاء من شمال إفريقيا آنذاك.

وكان لكل واحدة من الدولتين العظيمتين آنذاك مستعمرات صغيرة فى الشرق وفى الغرب، ودول متحالفة معها، وكانت الجزيرة العربية التى شرفها الله كى تكون مهبط الوحى والرسالة محاطة بهاتين الدولتين العملاقتين. فكان العراق وما والاها مستعمرة لفارس وكانت تحمى ملوكها المناذرة من الأعداء. وكانت سوريا وما والاها مستعمرة لروما، وهى تحمى ملوكها الغساسنة من أى هجوم خارجى يكدر صفوها. وكانت الجزيرة العربية ولا سيما مكة والمدينة مستقلتين عن هاتين الدولتين. أما مكة فكان يحكمها سادة قريش، وأما المدينة فلم تكن أكثر من معبر لقوافل الشتاء والصيف، وفيها كانت جالية يهودية تعيش فى قلاع وحصون منيعة. وكانت الأمة الفارسية وثنية مجوسية تعبد النار. حيث ترى فيها مظهراً لله، وكانت الأمة الرومانية مسيحية تؤمن

١- سبأ : ٢٨.

بالأقانيم الثلاثة «الآب، والابن والروح القدس». وكلتا العقيدتين بعيدتين كل البـ
عبادة الله الواحد الأحد الفرد الصمد الذى لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحـ

وكان سكان مكة وحواليها من يثرب فى الشمال إلى اليمن فى الجنوب
الأصنام على غرار خاص بهم، وكانت الأصنام المنصوبة حول الكعبة رمزا لعـ
وكانوا يتقربون إلى الله زلفى. أما الأخلاق الاجتماعية والتقاليد الدينية عندهـ
على حد تعبير ابن عم الرسول جعفر بن أبى طالب رضى الله عنه فى حـ
النجاشى.

«أيها الملك كنا قوم جاهلية، نعبد الأصنام، ونأكل الميتة، ونأتى الفواحش
الأرحام، ونسىء الجوار، ويأكل القوى منا الضعيف».

ونسمع مرة أخرى من المغيرة بن شعبة يقول ليزدجرد ملك فاره

«كان ديننا أن يقتل بعضنا بعضا، وأن يبغى بعضنا على بعض، وإن كـا
ليدفن ابنته وهى حية كراهية أن تأكل من طعامه».

فى مثل هذا المجتمع البعيد عن الرحمة والإنسانية بعث الله رسوله رحمة
وللناس أجمعين :

﴿وَمَا أَرْسَلْنَكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِلْعَلَمِينَ﴾ [1].

فهو رسول العرب والعجم لا يختص بقوم دون قوم، او بعصر دون عصر، فـ

١- الأنبياء : ١٠٧.

العصور والأجيال فى كل أنحاء الأرض.

وأرسل الله محمدا (ص) بدين الإسلام، ولهذا الرسول العظيم معجزتان يمتاز بهما عن كل الرسل الذين سبقوه، أولهما معجزة الإسلام، وهى التشريعات العظيمة التى سنها لسعادة المجتمع الإنسانى روحيا وماديا، لبناء مجتمع فاضل كريم على أساس من العدالة والفضيلة والمساواة. وهذه التشريعات تخص العقيدة والإيمان بالله والجوانب الروحية والعبادية، ونظام الحكم الأمثل المتمثل فى «الشورى» والحرية والمساواة والقضاء العادل، كما أنها تخص المعاملات والقصاص والأحوال الشخصية والتجارة والضرائب والتعليم والجهاد والدفاع وصلاحيات الحاكم والقاضى إلى آخر ما هنالك من الشئون المتعلقة بنظام إنسانى متكامل يليق بالإنسان الذى أكرمه الله وجعله أحسن مخلوقاته.

إذاً معجزة الإسلام هى تشريعاته العظيمة فى كل نمط من أنماط الحياة سواء تلك التى تتعلق بالجانب الروحى فى الإنسان أو الجانب المادى والاجتماعى. أما معجزة الرسول (ص) إنما هى خلق مجتمع عظيم فى أقل من ربع قرن على هدى الدين الجديد، مما سبب فى انبثاق أمة رشيدة عظيمة فى الساحة الإنسانية الكبرى، استطاعت إن تهيمن على أعظم إجزاء هذا الكوكب الذى نعيش عليه فكريا وسياسيا وأقتصاديا، فى أقل من نصف قرن. لقد أحدث رسول الله بقدرته الخارقة التى كانت مؤيدة من عند الله نبوغا مفاجئا فى مجتمع كان شأنه من قبل ظهور الإسلام ما سمعنا التعبير عنه فى حضرة النجاشى ملك الحبشة، وفى حضرة كسرى ملك فارس، وإذا بهذه الأمة تصل إلى تلك المرحلة الرفيعة التى يثنى عليها الله تعالى بقوله :

(كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ

١- آل عمران ١١٠.

بالله...)[1].

ويعبر الرحمن عن تلك الأمة فى مكان آخر بقوله :

(وَٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا ٱلصَّلَوٰةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ)[1].

وذهب رسول الله (ص) إلى الرفيق الأعلى وترك بعده فى الساحة أمة تأمر وتنهى، وأصبحت الآمرة والناهية التى تختار الحاكم والقائد وتحاسبه على الكبيرة والصغيرة، وتسير على هدى العقيدة الجديدة، فاستطاعت فى أقل من ثلاثين عاما بعد وفاة الرسول القائد أن تصل إلى أسوار الصين، وترفرف رايتها على نصف المعمورة فى ذلك التاريخ، وتُدخل تحت لوائها بلادا وأقاليم كان الوصول إليها ضربٌ من الخيال، ناهيك أنها أصبحت من ضمن الأمة والدولة الإسلامية الجديدة، وها هى تفاخر بالعقيدة الجديدة وتتباهى بها.

وفى عام ٣٥ هجرى، وهو العام الذى انتخب فيه المسلمون الإمام عليا للخلافة، كانت فارس قد دخلت فى الإسلام، وأصبحت جزءا من الدولة الإسلامية. وبذلك تغلب الإسلام على أحد النظامين الحاكمين الكبيرين المسلطين على رقاب البشرية بالقهر والاستبداد. وحل محله نظام ديمقراطى عادل وعقيدة إلهيه رفيعة، كان أهل فارس يتلهفون على اعتناقها والإقبال عليها. حقا لقد منح الدين الجديد للأمة الفارسية من الحرية والعدالة والمساواة ما لم تعرف أوتسمع أوتر مثلها من قبل. وتجاوز الإسلام فارسا فوصل إلى أسوار الصين فى خلافة عثمان، وبذلك أصبحت المحطة القادمة

١- الشورى ٣٨.

للإسلام هى الاتجاه نحو المغرب، والقضاء على النظام الاستبدادى الرومانى، كى يتم بذلك توحيد المجتمع البشرى فى ظل نظام جديد وعقيدة جديدة اسمها الإسلام.

لقد ولى الخلافة على بن أبى طالب صهر الرسول (ص)، وزوج البتول، وأبو الحسنين، والفارس المغوار الذى خاض الحروب دفاعا عن العقيدة فى صحبة الرسول القائد، وهو يخرج منها كلها منتصرا ظافرا، ولم يبق أمام الخليفة الجديد إلا أن ينتهى الشوط الذى قام به أبو بكر وعمر وعثمان ليوحد المجتمع البشرى فى ظل ذلك النظام وتلك العقيدة الجديدة، الإسلام.

صنو الرسول

وأنا من رسول الله (ص) كالصنو من الصنو والزراع من العضد .

الإمام على – ذهب رسول الله (ص) إلى الرفيق الأعلى وترك فى أمته ثقلين أمر بالتمسك بهما، أولهما كتاب الله ثم عترته أهل بيته :

«تركت فيكم الثقلين كتاب الله تعالى وعترتى أهل بيتى»

وهذا يعنى أن رسول الله (ص) ترك فى أمته قيادتين منفصلتين أحداهما تتجسد فى الخلافة، وهى بالشورى نزولا عند النص الدستورى «القرآن الكريم» وثانيهما الإمامة «القيادة الروحية» وجعلها فى الإمام على ومن بعده فى أولاده أئمة أهل البيت. وقد سارت الأمة على هذا المنهج فى ظل قيادتين منفصلتين، الخلافة والإمامة لمدة خمسة وعشرين عاما حتى جاء دور الإمام على لتجتمع فيه القيادتان، السياسية والروحية معا.

ومع أن الإمام على حاول جاهدا رفض الخلافة (القيادة السياسية) بعد مقتل الخليفة عثمان قائلا :

«إنى لكم وزير خير لكم من أن أكون أميرا»

إلا أن الأمة رفضت إلا أن توليه الخلافة وهو كاره عليها [1].

وعندما انتخب المسلمون عليا للخلافة بعد مقتل عثمان، كان لواء الإسلام يرفرف على بخارى شرقا، وحتى مصر غربا، وانهارات إحدى الدولتين الكبريين، وهى فارس

١– راجع فصل (عهد الانقاد) فقد بحثنا هذا الأمر بالتفصيل.

أمام الإسلام ودخل الفرس فى دين الله أفواجا، بعد أن عرفوا الإسلام وما فيه من العداله الاجتماعية والمثل العليا الأخلاقية التى هى من سمات العقيدة الجديدة، وكان الفرس يتسابقون إلى قبول العقيدة الجديدة كرد فعل لما لاقوة طيلة القرون من الحكم الاستبدادى الفردى الذى كان يتحكم فى رقاب الأمة الفارسية، التى عانت الكثير من ظلم ملوكها وظلم رجال الدين المجوس على السواء. ولذلك كانت تنتظر الفرصة المناسبة للخلاص من الحالة البائسة التى كانت تكتنفها عبر القرون. وقد كان الظلم فى تلك ابلاد، قد وصل إلى مرحله غريبة، فقد ذكر المؤرخون أن الشعب الفارسى لم يكن قادرا على جنى ثمار الاشجار التى كان يزرعها فى دوره الخاصة، وكلها كانت تذهب إلى بلاط الشاهنشاه، ودخلت مصر فى الإسلام ولم تكن الحالة الاجتماعية فيها أحسن من فارس، فرأت في الإسلام خلاصا. أما الشام وفلسطين المتاخمتان للدولة الرومانية، فقد دخلتا فى الإسلام أيضاً وفى قصة معروفة هزت الكيان الاستبدادى الحاكم على روما المعقل الأخير للنظام الاستبدادى الفردى الحاكم على رقاب الناس.

لقد اقترح رعاة الكنيسة فى القدس أن يسلموا مفتاح المدينة ليد الخليفة عمر بن الخطاب بعد أن يعاهدهم على مطالبهم. وكان الخليفة قد خرج من المدينة بصحبة رفيق سفر واحد هو دليل يدله على الطريق، وامطى الخليفة بعيره يقصد فلسطين، ليواجه حكاما على رءوسهم التيجان المزركشة، وعلى صدورهم الصلبان الذهبية المرصعة. وتناوب عمر مع دليله فى ركوب البعير من المدينة إلى فلسطين، وخرج الناس عن بكرة أبيهم ليستقبلوا رجلا من أعظم الرجال فى ذلك الزمان، يمتد سلطانه من اليمن حتى بخارى، وخضعت له أكبر دولة من دول الأرض، وإذا بهم أمام رجل طويل القامة عريض المنكبين، ذى مهابة وبأس، بثيابه الرثة، وقد غطى الشيب لحيته، آخذا بزمام ناقة عليها رجل ضعيف، تبدو عليه سمات الحياء والخجل والعرفان. وعرف لناس بعد قليل أن أمير

الإسلام كان لا يملك أكثر من ناقة واحدة لامتطائها، فتناوب عليها مع دليله طوال مدة السفر من المدينة إلى الشام، وكان حظ الدليل أن يطل على الجموع المحتشدة لاستقبال الخليفة فى الوقت الذى كانت الناقة تحمله والخليفه آخذ بزمامها.

هذه الصورة العظيمة من حياة الأمة التى أرسى الإسلام قواعدها كانت تهز كيان الدولة الرومانية المجاورة، كما هزت من قبل كيان الدولة الفارسية المجاورة.

كان حديث الناس كله يدور حول هذا النظام الجديد، الذى أطل على العالم بعد قرون من استعباد الشعوب، حيث إن فى بلاط هرقل ألف ناقة لحمل أدوات مطبخه، إذا أراد السفر إلى خارج عاصمته، أما الذين فى خدمته من العسكر والخدم فلا يعلم عددهم إلا الله. وأمير الإسلام الذى يحكم بلاداً شاسعة، وأمما مختلفة، تضاهى ما يحكمه هرقل بعشره أضعاف يشارك دليله فى راحلته عبر الصحارى والفقار، وهو يستطيع أن يصطحب معه أكثر مما يصطحب هرقل بأضعاف.

ويصل إلى علم الدولة الرومانية أن خليفة آخر أصبح أميرا للمؤمنين وأنه لا يقل بأسا وصرامة فى تطبيق العدالة الإسلامية عن كل الذين سبقوه، إنه على بن أبى طالب أمير المؤمنين صهر رسول الله (ص) وزوج ابنته العظيمة فاطمة الزهراء وأبو الحسنين أعز الناس واحبهم إلى قلب رسول الله (ص)، رجل خاض معارك الإسلام تحت لواء القائد العظيم، وانتصر على الأعداء فى كل المعارك لشجاعته وصبره، إنه رجل يحمل كل ما فى قاموس الأخلاق من فضيلة وسؤدد.

إن وجود شخصية مثل على بن أبى طالب على رأس الدولة الإسلامية كان بحق أعظم خطر يهدد آخر معقل من معاقل الاستبداد العالمى، ولم يكن عند هرقل وبلاطه

من شك أن المحطة القادمة والأخيرة لرفع راية الإسلام إنما هى القسطنطينية عاصمة بلاده، كما أنه لم يكن من شك أن سقوط الحضارة الرومانية كان يعنى انهيار النظام الاستبدادى العالمى إلى الأبد ليطل على العالم نظام ديمقراطى نابع من الحرية وسيادة الأمة، يحكم العالم ويبقى بقاء النيرين.

وكان الرومان على علم بالدستور الذى يقدسه المسلمون، وهو القرآن الكريم، وهو الذى لم يبايعوا خليفة من الخلفاء إلا بعد أن يعدهم بالسير على هديه ونصوصه، وأن لهم نبياً أعطى للأمة وجودا على الساحة بفضل تعاليمه وأخلاقه، وهم ملتزمون بإحياء سنته؛ لا يحيدون عنها قيد أنملة، وكانوا يعلمون جيدا أن نصوص الدستور صريحة واضحة، توجب على الأمة الخضوع لنظام الشورى وانتخاب رئيس الأمة انتخابا حرا مباشرا، وأن العدالة والحرية والفضيلة لا بد أن تكون من سمات الخليفة الذى ينتخبه المسلمون، وأن من واجبه العمل فى إرساء القوانين الأخلاقية والاجتماعية التى نص عليها الدستور وطبقها رسول الله. وأن هذه القوانين كلها تتعارض مع النظام الحاكم فى الأمة الرومانية التى ترزح تحت سلطة الاستبداد منذ قرون وقرون، مثلها فى ذلك مثل الأمة الفارسية تنتظر ساعة الخلاص من نظامها الفاسد المستبد، دخول المسلمين إلى روما يعنى انضمام أكثرية الأمة الرومانية إلى صفوف القادمين الجدد والسير تحت لواء الدين الذى يعرفونه باسم الإسلام ومكاسبه.

وكان فى بلاط هرقل جبلة بن الايهم الذى كانت قصته تجسد العدالة الإسلامية، إن جبلة بن الأيهم هو الملك العربى الذى أسلم على يد الخليفة عمر ثم ارتد ليلتجىء إلى هرقل ويصبح من خلانه. وكانت الأمة الرومانية من أقصاها إلى أقصاها تعرف قصة جبلة وتقارنها بما هى عليها من حال، وكفى بجبلة وحضوره فى النظام الهرقلى وكل

أركانه. وقصة جبلة بن الأيهم حتى بعد ١٤ قرنا لجديرة بالاعتبار بل إنها تجسيد للعدالة الإسلامية.

أعلن جبلة حضوره إلى المدينة بصحبة عساكره كي يسْلمَ على الخليفة عمر بن الخطاب، فأمر الخليفة بإكرام الوافد الكبير، فخرج أهل المدينة لا ستقباله ولم يبق فى المدينة «بكر ولا عانس» حسب تعبير المؤرخين، إلا وخرج لا ستقباله، فدخل جبلة المدينة وبصحبته ألف فارس يرتدون ملابس ثمينة وعليهم أسلحة مطلاة بالذهب والفضة. وتتجسد العدالة الإسلامية التى عود رسول الله (ص) صحابته على اتباعها، فى حادثة حدثت بين جبلة ورجل من عامة المسلمين، فعندما كان جبلة يطوف حول الكعبة داس رجل إزاره الثمين فمزقه، وصفع جبلة الرجل. فشكاه عند الخليفة، وجاء دور القضاء ليجلس ملك من ملوك العرب مع رجل من عامة الناس أمام الخليفة ليسمع رأى الإسلام. فقال له عمر: إما أن ترضى الرجل أو يفعل بك ما فعلت به. وأراد جبلة أن يرضى الرجل بكل ما لديه من مال حتى لا يصفعه الرجول السوقى على حد تعبيره أمام جيشه وعشيرته. إلا أن الرجل رفض المال وأراد أن يفعل به كما فعل جبلة به. فاعترض جبلة على الخليفة بقوله : كيف تعامل الملك والسوقى على نهج واحد! فأجابه : إن الإسلام ساوى بين الملوك وغير الملوك. وقد قال رسول الله (ص) «لا فضل لعربى على عجمى إلا بالتقوى»، فإما أن ترضى الرجل او يفعل بك ما فعلت به. فاستمهل جبلة الخليفة حتى الصباح، فأمهله، فاغتنم سواد الليل وأخذ جيشه وزاده وماله، وخرج من المدينة قاصدا هرقل فى القسطينطينية، وبقى فى جواره لا جئا مرتدا.

إن وجود هذا الملك اللاجىء الذى ارتد عن دين الفضيلة والعدالة لأنه لم يحتمل

الحكم العادل، كان ناطقا صارخا بعظمة الدين الجديد، الذى بدأ يهز النظام الرومانى العريق فى الحكم والسياسة، وكان إنذارا قوياً لهرقل وحاشيته، حافزا للأمة الرومانية على قبول الرسالة الجديدة إذا ما وصلت إليهم.

إن من الغباء أن نتصور أن روما الشرقية التى كانت امتدادا لروما الغربية ولحضارة تمتد فى أغوار التاريخ ألف عام و تتجسد فى قيصر وفتوحاته، إبان ظهور المسيح، شملت أوربا، وامتدت حتى الجزر البريطانية، وأسر سكانها وتقييدهم بالسلاسل يطاف بهم على البلاد، واستعمرت إفريقيا ومصر لفترة من الزمن، لم تعرف السياسة والحكم ودرء الأخطار التى كانت تهدد كيانها. إن روما القديمة، التى كانت تحاك فى أورقة مجلس شيخوخها كل الدسائس والمؤامرات الداخلية والخارجية، كانت ذات حضارة سياسية انتقلت إلى روما الشرقية واجتمعت فى أورقة قصور الهراقلة.

إن المؤرخ الكبير «ويل ديورانت» يكتب فى تاريخه الضخم «قصة الحضارة» ، إن أسواق مدينة روما كانت تضم مكتبات فيها كتب فى علم الفلك والفلسفة والهندسة والأدب والتاريخ، وكان النساخون يقومون بنسخ الكتب فى اعداد كثيرة لبيعها على الناس. إن مثل هذه الحضارة التى كانت امتداد للحضارة إليونانية المجاورة، وما كانت عليه من رقى الفكر ولفلسفة والعلوم الأخرى لم تكن بمعزل عما يدور حولها من الخطر الذى قضى على جارتها المماثلة فارس حتى دكها دكاً.

وبعد كل هذا، فإن المواجهة العسكرية التى كانت تحدث بين المسلمين وجيوش هرقل فى الحدود لغربية لبلاد المسلمين بدءا من «حرب موتة» فى عهد الرسول (ص) التى استشهد فيها ابن عم الرسول جعفر بن أبى طالب وابنه الذى تبناه وهو زيد بن

حارثة، ورد الروم إلى مواقعهم. كانت كلها إنذارا بالخطر الشديد.

ومن البديهى أن الرومان كانوا يعلمون باهتمام رسول الله (ص) بدفع الخطر الذى كان يهدد الوجود الإسلامى من ناحيتهم أيضاً، وبتجهيزه لجيش أسامة الذى أمره بالسير إلى أهل الروم وهو فى مرض الوفاة، وقد جعل فى مقدمة الجيش كبار صحابته مثل أبى بكر وعمر، إن هذه الوقائع كانت تحكى عن رغبة رسول الله (ص) فى انتصار الجيش العظيم على آخر معقل من معاقل الاستبداد والظلم.

ولا بد لنا أن نسجل هنا أيضاً أن الحروب التى خاضها خالد بن الوليد فى خلافة عمر بن الخطاب فى الحدود المتاخمة لبلاد الروم، ولحفظ الحدود والثغور الإسلامية من خطرهم، مضافا إلى ذلك فقدان الرومانيين أعظم مكان مقدس لهم وهو بيت المقدس على أيدى المسلمين، وفقدان دولة مسيحية صديقة، هى مصر وضمها إلى الدولة الإسلامية الجديدة، وفقدان أعظم كنائسهم فى دمشق، وتبديلها إلى أعظم مسجد من مساجد المسلمين، كل هذه الوقائع كانت إنذارا بعد إنذارا لهرقل وبلاطه وحاشيته يفرض عليهم التحسب لها ألف حساب.

وجاءت خلافة الإمام على بن أبى طالب ضربةً قاضية تهدد مستقبل الرومانيين ووجودهم السياسى وكيانهم الفكرى. فإن وجود على فى الخلافة كان يعنى بالنسبة إلى الرومان نهاية الإمبراطورية وضمها إلى الدولة الإسلامية الجديدة. فالخليفة عمر أنهى دولة فارس وفلسطين ومصر، والخليفة عثمان وسع حدود الأمة الإسلامية حتى بخارى وحدود الصين، وعلىٌ هذا الفارس المغوار العظيم لا بد أن ينهى آخر معقل من معاقل الاستبداد العالمى، وينفذ رغبة رسول الله ووصيته وهو على فراش الموت. ولم يكن

الخوف والفزع الروماني من علي لأنه ابن عم رسول الله (ص) فحسب، بل كانت أنباء سيرة الخليفة الجديد في الحكم تصل إلى روما يوما بعد يوم، وتقارن بما لهرقل من سيرة في الحكم والأخلاق، فكان لا بد من إلقاء الضوء على حياة الرجل الذى أصبح أعظم حكام عصره، ويحكم بلادا واسعه وشاسعة، هى أكبر مما يحكمه هرقل، وله أمة عظيمة ذات مبادىء عظيمة، أكثر عددا من أمة هرقل، وله فلسفة حكم ونظام حكم يناقص فلسفة حكم هرقل ونظامه. ويوم أن وصلت إلى الرومانيين أخبار مفادها أن أعظم حاكم من حكام الأرض يجلس مع يهودى من رعاياه أمام قاض عيّنه هو فى منصب القضاء ليقضى بينهما ويرضخ أمير المؤمنين للحكم الذى أصدره القاضى عليه، كان يعنى أن اجراس الإنذار بدأت تدق من جديد، وأن هذا الحاكم العظيم الذى ليس إلا على بن أبى طالب أمير المسلمين والمؤمنين لا بد ألا أن يدع آخر معقل من معاقل الاستبداد فى مأمن.

أما قصة على واليهودى فهى :

إن الإمام رأى يهوديا فى شوارع الكوفة وهى العاصمة التى اتخذها مقرا لخلافته، يمشى متقلدا درعه، الذى فقده الإمام فى أحد أسفاره. فطالب الإمام اليهودى به، فأبى اليهودى، ولم يستعمل الإمام سلطته ليأخذه منه عنوة، بل شكاه إلى القاضى شريح.فأحضر القاضى الشاكى والمشتكى عليه ليجلسا أمام منصة القضاء متساويين فى الحقوق، لا فرق بينهما. الشاكى هو على بن أبى طالب أعظم حاكم فى عصره، والمشتكى عليه يهودى ذمى يعيش فى ذمة الإسلام. وسمع القاضى من الشاكى والمشتكى عليه كليهما، إلا أن الإمام على لم يكن عنده شاهد يشهد بأن الدرع له،

فربح اليهودى الدعوى وخسرها أمير المؤمنين، لأن النص الدستورى الوارد فى كلام رسول الله واضح. حيث قال (ص) «البينة على المدعى واليمين على من أنكر». ولم تكن بينة. أما اليهودى الذى أنكر فقد أدى اليمين. وهنا يعتذر القاضى من الخليفة الذى عينه فى هذا المنصب بقوله : يا أمير المؤمنين إنى أعلم أنك مع الحق فى دعواك والدرع درعك ومعاذ الله أن تكون كاذبا ولكن أنت أعلم الناس بالقضاء، فالقاضى لا يستطيع أن يحكم بعلمه حسب قانون الإسلام، فلذلك ربح المدعى عليه الدعوى، لأنه أدى اليمين وخسرتها لأنك لم تقدم شاهدا، فيقول له الإمام : لقد كنت عادلا والله فى حكمك، إلا فى أمر واحد وهو أنك ما ساويت بينى وبين خصمى فى النداء فكنت تنادينى بكنيتى احتراما لى، وتقول لى يا أبا الحسن، وكنت تنادى اليهودى باسمه فقط، فكان عليك إما أن تنادى الاثنين بالاسم، أو تنادى الاثنين بالكنية حتى لا يحس أحد المتخاصمين بغضاضة، وتنفذ المساواة التى أمر بها الإسلام فى مثل هذه الأحوال.

إن هذه الصور الرفيعة من الديمقراطية هى التى فقدها المسلمون منذ أن انتهت خلافة على بن أبى طالب، وهى التى كانت إنذارا فى حينه لهرقل ونظام حكمه، فيا ترى حقا أن عليا قاضى اليهودى لدرع فقده وهو يريد استرداده، وهو لذى يقول «أن دنياكم هذه عندى كعفطة عنز، إلا أن أقيم حقا أو أبطل باطلا» أم أراد بذلك أن يجسد عدالة الإسلام فى المجتمع الإنسانى وأن يطبقها على نفسه لتكون قدوة لغيره؟!

أراد على أن يعطى درسا عمليا للأمة، له أبعاده العظيمة فمن جهة أعطى القيمة للإنسان سواء أكان مسلما أم يهوديا أم غيرهما. ومن جهة أخرى ضمن حرمة الفئات غير المسلمة وحصنهم اجتماعيا وسياسيا واقتصاديا فى ظل الدولة الإسلامية العادلة، ليعرف الجميع أن لليهودى الذمى فى ظل الإسلام ما للمسلم من حقوق وواجبات لا

يمكن الاعتداء عليها. بل يعامله الإسلام على قدم المساواة مع المسلم أمام القانون والعدالة حتى لو كان خصمه أمير المؤمنين.

ثم جسد العدالة التى جعلت الناس سواسية أمام القانون، ولم تفرق بين الحاكم وغيره فى الرضوخ أمام العدالة. والعدالة عندما تعم الجميع يكون المجتمع صالحا، وتتحقق المدينة الفاضلة التى كان الإسلام يسعى لتحقيقها، وبعد كل هذا جسّد استقلال القاضى والقضاء فى ظل العدل الإسلامى، وأن القاضى فى قوته واستقلاله وحرية رأيه يمثل العدل الإسلامى الذى عاهد أمير المؤمنين على تطبيقه. ثم بعد ذلك يجسد التزام القضاء بنصوص الدستور دون أن يلين فى تطبيقها حتى الحاكم مهما كان عظيما.

صحيح أن ما شهدته محكمة الكوفة فى ذلك اليوم كان حدثا فريدا لم يحدث مثله بعد ذلك اليوم فى المحاكم الإسلامية إلى يومنا هذا. لقد انتهت تلك العدالة بانتهاء الخلافة الراشدة، إلا أن أمما غير مسلمة طبقت تلك الحالة على نفسها، وسارت على الطريق نفسه، ولم تذكر تلك الأمم أنها قلدت عليا فى الطريقة التى جسد بها عدالة القضاء فى الإسلام. وأغرب من هذا إننا نحن المسلمين عندما نسمع بحرية القضاء. وباستقلال القاضى فى المجتمعات الديمقراطية والأحكام التى تصدرها على رؤساء الأنظمة الديمقراطية رغم إرادتهم لإنصاف فرد من أفراد الأمة نتخذها عبرة، ونلهج بذكرها عجبا، ونحن لا ندرى أن هذه الأمم طبقت معارفنا ودستور الإسلام، وإذا كانت لم تعترف بذلك فلا يعنى أن الحقيقة تخفى وتختفى. نعم إن المحاكم فى سويسرا وفى السويد وفى كثير من البلاد الديمقراطية تبعث بمذكرة إحضار للحاكم أو الملك لكى

يحضر مع المدعى أمام القاضى ويعامل المشتكى المشتكى عليه على نمط واحد، كما فعل شريح القاضى من قبل أربعة عشر قرنا، أما فى كثير من محاكم البلاد الإسلامية، فقد يكون الموت مصير الشاكى إذا ما تقدم بدعوى ضد الحاكم فى خدش إرش.

وإذا كان على قد جسّد العدالة فى ذلك الموقف العظيم، فقد جسد الخليفة عمر بن الخطاب قبله كما أشرنا قبل قليل، العدالة والمساواة فى سفره إلى بيت المقدس، فيا ترى هل عبر الصحراء مع خادمه على ظهر بعير واحد لأن الخزانة الإسلامية كانت لا تملك المال لشراء الإبل والخيل؟ أو لم يكن لديه جيش ليرافقه فى رحلته؟! كلا والله بل إن الخزانة الإسلامية كانت فى ذلك العهد، أغنى من خزانة هرقل، وكان عمر يستطيع أن يدخل إلى فلسطين بصورة لا تقل عظمة عن الصورة التى دخل بها هرقل، إلا أنه أراد أن يجسد العدالة الإسلامية، ويضرب بها مثلا على نفسه ليكون قدوة لمن بعده، وصوتا عاليا للإسلام لا يخمده الدهر. ولذلك فمن السذاجة أن نتصور أن الرومان لم يدركوا الخطر الذى كان يهدد كيانهم، وأنهم لم يفكروا ولم يضعوا الخطط الكفيلة بدرئه، ولهذا يبدو لى واضحا كل الوضوح، المكيدة التى استعملها هرقل للقضاء على التوسع الإسلامى، بل على حقيقة الإسلام. وذلك فى تحالفه مع والى الشام. إن وجود معاوية لمدة عشرين عاما واليا عن الخليفتين عمر وعثمان فى بلاد الشام المحاددة للإمبراطورية الرومانية، كان ينطق بصوت عال : إن الأمل معقود على هذا الوالى المخضرم، فى تنفيذ الخطة التى تنهى واقع الإسلام – الذى كان يهدد بالخطر– الإمبراطورية الرومانية.

فمعاوية كان معروفا لدى الرومانيين، يعرفون خفايا قلبه وسوابقه، وسوابق أبيه أبى

سفيان فى صراعه المرير مع صاحب الرسالة أولا، ومع الخليفة الجديد ثانيا، وكان هرقل يعرف جيدا - كما يعرف غيره - أن الخليفة الجديد الذى هو على بن أبى طالب قد قتل خال وجد وأخ والى الشام فى موقعة واحدة فى غروة بدر، وكان يعرف جيدا أن أم الوالى المخضرم هند هى التى دفعت صعلوكا لقتل حمزة بن عبد المطلب عم الخليفة الجديد وإخراج كبده، وتقديمه إليها لتأكله نيئا تشفيا للثأر. وكان هرقل وحاشيته على علم أكيد بذلك العداء المستتب بين بنى هاشم وبنى عبد شمس لفترة تزيد على قرن، كما أن أولئك الرومان أصحاب الإمبراطورية التى مضى عليها ألف عام من السؤدد والحكم والمكر والدهاء فى السياسة، كانوا يعلمون جيدا بالحروب التى خاضها والد والى الشام أبو سفيان ضد رسول الإسلام، والمعاناة التى عاناها الإسلام ومحمد (ص) والمسلمون على يد هذه الأسرة من يوم أن بعث محمد (ص) حتى الساعة التى اضطر أبو سفيان للدخول فى الإسلام صونا لحياته فى عام الفتح، أى قبل وفاة الرسول بسنة واحدة.

كل هذه الأمور كانت تبشر النظام الرومانى أن الحل الأسمى فى الطريق سيكون على يد معاوية بن أبى سفيان. إن خروج معاوية على علي وخوضه حرب «صفين» والخدع التى رسمها تضعيفا لخلافة على، ومنعه من التحرك خارج الحدود الإسلامية، وبالتالى تضعيف القوة الإسلامية الكبرى، بسبب المعارك الداخلية التى فرضها معاوية بعصيانه المسلح ضد الخلافة الشرعية، كلها تحكى لنا عن قوة هائلة عظيمة وتخطيط دقيق عظيم، لضرب الإسلام من داخله. إن ما حدث لم يكن من صنع العرب، ولا أهل الشام، إنه تخطيط دقيق ورهيب للنظام الاستبدادى العالمى الذى كان يجسده هرقل كآخر حلقة من حلقاته، والتى كانت السياسة الهرقلية مستميتة فى سبيل نجاح مآربها،

لأنها كانت على شفاه حفرة من الهلاك.

إن ما يؤكد وجود مؤامرة رومانية شديدة المراس والتخطيط للقضاء على التوسع الإسلامى. بل القضاء على حقيقة الإسلام وروحه، وتغيير النظام الديمقراطى الذى جاء به الإسلام إلى نظام استبدادى فردى، يجعل القيم الإنسانية شذرا مذرا هو ما يلى :

١- انتخب المسلمون عليا للخلافة وتحت إمرته وحكمه أكبر بقاع العالم المتحضر آنذاك، فكان سلطانه ممتدا من اليمن حتى بخارى، ومن الجزيرة حتى مصر. ويبدو فى بادىء الأمر أن خروج بقعة صغيرة باسم الشام على حكم هذا الخليفة وعلى رأس البغاة رجل مثل معاوية لا ولن يمكن أن يعد خطرا ذا شأن على الخلافة الجديدة، ويمكن دحره فى غضون أيام واسابيع.

٢- الخليفة الجديد هو على بن أبى طالب البطل المغوار وأسد الله فى الحروب التى خاضها ضد الكفر، فكفاه فخرا وشرفا أن رسول الله (ص) أعطاه وساما لم يعطه لاحد من قبل، ولا من بعد، وذلك فى يوم الخندق عندما نازل عدو الله عمرو بن ود الذى ثمنه الرسول (ص) بقوله : «ضربة على يوم الخندق أفضل من عبادة الثقلين»[1].

ومعاوية طليق ابن طليق دخل الإسلام رغم إرادته وحارب الإسلام والمسلمين ملء إرادته ولا نتحدث عنه أكثر مما تحدث عنه على - وهو اعرف الناس بموقعه وموقع خصمه - عندما يقول :

١ - رواه الترميذى فى الصحاح.
٢ - نهج البلاغة.

٤-كل من يعرف معاوية يعرف جيدا أن والى الشام لم يكن رجلا مجازفا مخاطرا يجازف بحياته وأسرته وممتلكاته وقومه، بل إنه داهية من الدهاة، لا يركب الشر إلا إذا عرف أنه طوع إرادته، فلذلك لم يدخل معاوية المعركة مع علىّ إلا بعد أن كان على يقين بالانتصار فى المواجهة.

٥- إن نظرة فاحصة إلى المواجهة التى تمت بين على ومعاوية فى صفين، واستمرت ثمانية عشر شهرا، تكشف بلاريب أن وراء معاوية قوة عظيمة رهيبة هائلة لم يستطيع أن ينتصر عليها حاكم مثل علىّ وهو يحكم نصف العالم المتحضر فى وقته، وأن هذه المواجهة استمرت ثمانية عشر شهرا انتهت برجوع علىّ من المعركة بدون إحراز نصر عملى، وخروج معاوية من الحرب بإحراز نصر فكرى فى ظل خدعة التحكيم.

لقد شاء الله أن أحصل على نص صريح للإمام على خَفِىَ على كل الذين كتبوا عن على ومعاوية، ففى هذا النص تلميح بل تصريح بتلك المؤامرة التى كانت تحاك للقضاء على الإسلام، على أيدى متآمرين خارج الصقع الإسلامى، مشيرا إلى الفتن التى كانت تهدد كيان النظام الإسلامى بقوله:

«أن هذا الأمر جاهلية، وإن لهؤلاء القوم مادة، إن الناس من هذا الأمر إذا حرك على أمور، فرقة ترى ما ترون وفرقة ترى ما لا ترون، وفرقة لا ترى هذا ولا ذاك، فاصبروا حتى يهدأ الناس وتقع القلوب مواقعها»[1].

١- نهج البلاغة.

وهنا نقرأ بوضوح أن عليا يصرح بتلك المادة التى تحرك القوة للانفضاض على النظام الشرعى.

٦- إن نظرة فاحصة إلى الحوادث التى سببت مقتل عثمان، واشتراك الأمويين والمروانيين فيها، توحى إلينا بأن المؤامرة الكبرى فى التاريخ بدأت بمقتل عثمان، واكتملت بقتل على بن أبى طالب وتضعيف الخلافة الراشدة، وتحققت باستيلاء معاوية على الحكم، وأعطت ثمارها بمقتل الإمام الحسين فى يوم العاشر من محرم عام ٦١ هجرى. وإذا أمعنا النظر فى الطريقة التى قتل فيها عثمان لنرى أنها طريقة أجنبية لا صلة لها بالعادات والطرق العربية والإسلامية، فقد تسور نفر من بين الثائرين دار الخليفة وقتلوه وهو يتلو القرآن الكريم، وقد ناهز الثمانين من العمر. ولكن هناك وثيقتان تاريخيتان نستعين بهما للوصول الى المؤامرة الكبرى التى بدأت للقضاء على الخلافة الراشدة، والوثيقتان التاريخيتان نجدهما فى كلام الإمام على، حيث أشرنا إلى إحداهما قبل قليل فى معرض حديثه عن قتلة عثمان، وأما الوثيقة الثانية، والتى تنص على الذين انضموا إلى معاوية لمحاربته حيث يقول :

«جفاة طغام، وعبيد اقزام، جُمِّعوا من كل أوب، وتلقطوا من كل شوب، ليسوا من المهاجرين والأنصار، ولا من الذين تبوءوا الدار» [1].

وهاتان الوثيقتان صريحتان بأن قتلة عثمان كانوا مرسلين من جهة أجنبية، وأن جيش معاوية كانوا مرتزقة جمعهم من أنحاء مختلفة.

١- نهج البلاغة.

وهناك نص آخر لا بد من أن نشير إليه، ونحن نريد أن نستخرج من بطون التاريخ أعظم مؤامرة حيكت ضد الإسلام والمسلمين، وقد خفى على الأمة عبر تاريخها، فهناك كلام صريح للإمام على يخاطب به معاوية بقوله :

«فأما إكثارك الحجاج فى عثمان وقتله، فإنك إنما نصرت «عثمان» حيث كان النصر لك وخذلته حيث كان النصر له» (١).

وهكذا نرى أن الإمام يشير إلى معاوية كأحد الضالعين فى مقتل عثمان. وأعتقد جازما أن مقتل ثلاثة من أربعة من الخلفاء الراشدين، وعلى نمط واحد، وبصورة متلاحقة، لا يمكن أن يكون من الصدفة، أو الأعمال الاعتباطية، إنها خطة دقيقة محكمة، من قبل القوى الاستبدادية الكبرى، التى كانت ترى فى الخلافة الراشدة خطرا عظيما لكيانها.

فالخليفة عمر بن الخطاب قتل على يدى مجوسى لم يكشف التاريخ االنقاب عن الدوافع التى دفعته إلى الجريمة، غير تكهنات كانت على نسق واحد، أثبتها المؤرخون، واغتال نفر الخليفة عثمان، وبعده اعتال نفر من الخوارج الإمام على، والاغتيالات الثلاثة هذه كلها حالات غير طبيعية وغير صحية فى ذلك المجتمع الراشيد، الذى كانت تحكمه الخلافة الرشدة، ولم يحدث بعد ذلك اغتيال فى الأنظمة التى سادت باسم الخلافة الأموية والعباسية والفاطمية وغيرها. إذاً يصح لنا القول أن المؤامرة التى كانت تستهدف حياة الإسلام ومنهجه الاجتماعى، كانت قد بدأت بمقتل عمر بن الخطاب، واستمرت حتى مقتل الإمام على، ومن ثم صلح الإمام الحسن مع معاوية حقنا لدماء المسلمين، وتغيير الخلافة الراشدة إلى ملك عضوض استبدادى، لا وجود لقيم الإنسان فى ثناياه.

١- نهج البلاغة.

إن هذه المؤامرة الكبرى بدأت من أقوى الساحات المعادية للإسلام، المليئة بفنون المؤامرات، وتجلت فى آخر المطاف بالفتنة التى أشعلها معاوية ليقضى على كل ما بنته الأمة الرشيدة فى عهد الرسول والخلفاء الراشدين.

٧- إن من أهم الدلائل التى يمكن الركون اليها، فى أن الحركة التى بدأها معاوية ونجح فيها، واستتبت فيما بعد الخلافة له، إنما كانت مؤامرة رومانية - هرقلية، دبرتها المسيحية الحاكمة آنذاك، والدليل على ذلك هو أن معاوية فى خلافته لم يطبق النظام القبلى الجاهلى كما زعم كثير من الذين أرخوا حياته، فالنظام الجاهلى الذى نشأ وترعرع فيه قبل دخوله فى الإسلام أو فى السنوات التى كانت الحروب فيها سجالا بين أبيه أبى سفيان، وبين رسول الله (ص) كان يختلف تماما عن النظام الاستبدادى الفردى الحاكم، المتمثل فى روما وإمبراطوريتها. لأن النظام القبلى الجاهلى كان يحفظ حق االقبيلة فى شئون حياتها، وكان فيها مُثُل قبلية كما قلنا قبل قليل، مُثُل تحفظ أعراض القبيلة ودماءها وأموالها، ولا نشك أبدا أن الحروب التى خاضها أبو سفيان ضد الإسلام كانت لحفظ مصالح بنى أمية وقريش الاقتصادية والاجتماعية والفكرية، التى كان الإسلام يهددها بالتدمير الكامل، نجدها فى الأدب الجاهلى الرفيع الذى خلّفه لنا الأعشى وامرؤ القيس والنابغة الذبيانى والشنفرى، وكفى هذا الاخير فخرا أن رسول الله (ص) كان يقول «علموا أولادكم لامية العرب للشنفرى». كما ان رسول الله (ص) كان يستحسن كثيرا قول لبيد الشاعر، وكان يستشهد به بين حين وآخر:

ألا كل شىء ما سوى الله باطل وكل نعيم لا محالة زائل

إذاً فإن كثيرا من القيم الإنسانية المحفوظة ضمن النظام القبلى الجاهلى الذى كان يحكم الجزيرة قبل الإسلام، والذى نشأ عليه معاوية لم يطبقه فى حكمه، غير أنه طبق قيم النظام الاستبدادى الفردى الذى كان سمة من سمات هرقل ونظامه، حيث كان يتلخص فى جملتين : «تدمير القيم الإنسانية، والتحكم فى رقاب الناس بأى ثمن».

وكما قلنا ونكرر أن معاوية أسس نظاما جديدا فى الحكم. يعتبر المدرسة التى لا زالت تسير فى المجتمع الإسلامى بخطى ثابتة، وهى مدرسة الحفاظ عليى مظاهر الإسلام وتدمير القيم الإنسانية. فهو فى القسم الأول راعى شعور الأمة الإسلامية. حيث لم يكن بمقدوره تغيير العقيدة التى رسخت فى القلوب. وفى القسم الثانى نفذ رغبة آخر معقل من معاقل الحكم الاستبدادى الفردى وهو تدمير القيم الإنسانية.

إن هذه المدرسة التى أسسها معاوية من أنجح المدارس التى حكمت العالم الإسلامى قرونا بعد قرون، وقد بدأت تعطى نتائجها بعد حرب صفين. فبعد رجوع الإمام علىّ إلى الكوفة من حرب صفين، بدأت ملامح الضعف والضياع تظهر فى شئون الأمة وحياتها، وبدأت المؤامرة التى حاكها أعداء الأمة الإسلامية تعطى نتائجها من كل صوب، وكانت أولى وأهم هذه المظاهر أن الأمام على بدأ يفقد سيطرته على الأمة الإسلامية.

ولا شك أن «الطابور الخامس» بدأ يعمل فى داخل البلاد الإسلامية بكل شدة ليغير مجرى حياتها فكريا وعمليا. ولا نحتاج إلى أدلة كثيرة لإعطاء صورة عن الحالة التى بدأت تكتنف الأمة وتنذرها بالضياع، فنحن أمام كلام صريح من خطب الإمام على يحتوى على صورة واضحة من ذلك العصر، إنها صورة حزينة عن ضعف الأمة أمام أعداء يتربصون بها، وصورة حزينة عن قيادة رفيعة تميل نحو الضعف والانهيار بسبب انحراف الأمة عن الطريق الذى كانت تسير فيه نحو نصف قرن.

يحدّث الإمام على فى خطبته الرائعة عن الحالة التى وصلت إليها الأمة بقوله :

«ألا وإنى قد دعوتكم إلى قتال هؤلاء القوم ليلا ونهارا وسرا وإعلانا، وقلت لكم اغزوهم قبل أن يغزوكم، فوالله ما غزى قوم فى عقر دارهم إلا ذلوا، فتواكلتم وتخاذلتم حتى شنت الغازات عليكم، وملكت عليكم الأوطان، وهذا اخوغامد قد دخلت خيله الأنبار وقتل حسان بن حسان البكرى، وأزال خيلكم عن مسالحها. ولقد بلغنى أن الرجل منهم كان يدخل على المرأة المسلمة والأخرى المعاهدة فينتزع حجلها وقلبها وقلائدها لم يسترجع منع إلا بالاسترحام، ثم انصرفوا وافرين ما نال أحد منهم كلم، ولا أريق لهم دم. فلو أن امرءا مسلما مات من بعد هذا أسفا ما كان به ملوما، بل كان به جديرا، فيا عجبا والله يميت القلب اجتماع هؤلاء القوم على باطلهم وتفرقكم عن حقكم. فقبحا لكم وترحا حين صرتم غرضا يرمى، يغار عليكم ولا تغيرون، وتُغزون ولا تَغزون، ويعصى الله وترضون، فإذا أمرتكم بالسير إليهم فى أيام الحر قلتم هذه حمارة القيظ أمهلنا ينسلخ عنا الحر، وإذا أمرتكم بالسير إليهم فى الشتاء، قلتهم هذه صبارة القر، أمهلنا ينسلخ عنا البرد. كل هذا فرارا من الحر والقر، فإن كنتم من الحر والقر تفرون، فإذاً أنتم والله من اليسف أفر. يا أشباه الرجال ولا رجال، حلوم الأطفال وعقول ربات الحجال، لوددت أنى لم أركم ولم أعرفكم، معرفة والله جرت ندما واعقبت سدما، قاتلكم الله لقد ملأتم قلبى قيحا وشحنتم صدرى غيظا، وجرعتمونى نغب التهمام أنفاسا، وأفسدتم على رأيى بالعصيان والخذلان، حتى لقد قالت قريش إن ابن أبى طالب رجل شجاع، ولكن لا علم له بالحرب، لله أبوهم. وهل احد منهم أشد لها مراسا، وأقدم فيها مقاما منى، لقدنهضت فيها وما بلغت العشرين، وها أنذا قد ذرفت على الستين، ولكن لا رأى لمن لا يطاع [1].

١- نهج البلاغة.

لم تدم الحياة طويلا للإمام على بعد هذه الخطبة، فسرعان ما قتل وهو يؤدى صلاة الصبح فى جامع الكوفة، فقد قتله عبد الرحمن بن ملجم المرادى الذى كمن للإمام فى ركن من أركان المسجد وضرب بالسيف المسموم على رأسه وهو فى حالة السجود وسمع المصلين الإمام يقول : «فزت ورب الكعبة» فعرفوا بأن الواقعة قد وقعت، وتوفى بعد ذلك بثلاثة أيام، واختار المسلمون بعده الإمام الحسن خليفة لهم، وعندما سئل الإمام على وهو فى فراش الموت عن الرجل لذى يرشحه للخلافة قال :

«أترككم كما ترككم رسول الله»

وبهذه العبارة البليغة أراد أن يذكر الأمة بحقها الدستورى فى انتخاب من تراه أهلا للخلافة، ولتولية إمرة المسلمين.

انتصــار الأعــداء
هــرقــل و معــاويــة

والله ما معاوية بأدهى مني، ولكنه يغدر ويفجر، ولولا كراهية الغدر لكنت من أدهى الناس. – الإمام علي .

إن عام ٤١ هجرى هو عام المنعطف الخطير فى تاريخ الأمة الإسلامية وحياتها، حيث تغيرت فيه حياة الأمة رأسا على عقب، واستمرت قرونا. إنه العام الذى تنازل فيه الإمام الحسن عن الخلافة لمعاوية بن أبي سفيان، وأصبح هذا الأخير حاكما يفعل ما يشاء، ويحكم بما يريد.

ولقد اشترط الإمام الحسن فى بنود الصلح ما يمنع الكارثة التى كان يتنبأ بها، وكانت الأمة تخاف منها، فلذلك نصت شروط الصلح على أن تكون الخلافة وإمارة المسلمين بعد موت معاوية بالشورى، ينتخب المسلمون من يرونه أهلا لقيادة هذه الأمة. وقبل معاوية بالشروط فى ظاهر الأمر وأقسم على العمل بها، ولكنه بدأ بالتخطيط للقضاء على كل المكاسب التى جاء الإسلام بها ضمانا لحقوق الأمة، من الحقوق الاجتماعية والسياسية والعدالة والحرية، فى ظل نظام الشورى، وسيادة الأمة فى حق تقرير المصير، واحترام الدستور (القرآن الكريم) والالتزام المطلق ببنوده وواجباته وشروطه، والسير على متمم الدستور (سنة رسول الله (ص).

ولقد كان هدف معاوية الأسمى هو تغيير النظام الديمقراطى (الشورى) الذى كان يسير عليه السلف لصالح من أمة محمد (ص) فى عهد الخلافة الراشدة والأمة الرشيدة

إلى نظام ستبدادى إرثى، يفعل الحاكم خلاله ما يشاء، ويحكم بما يريد.

إن تغير الحالة الاجتماعية التى أحدثها الإسلام بالمعجزتين الخالدتين؛ معجزة التشريع ومعجزة الرسول فى خلق أمة فاضلة تلتزم بالدستور وتنفذه على القاصى والدانى، وتحكم نفسها، وتختار حاكما بأغلبية آرائها، وتحاسبه على الصغيرة والكبيرة، وتكون هى المسيطرة على مقاليد أمورها، اجتماعيا وسياسيا واقتصاديا إلى حالة من الاستبعاد وقبول الاستبداد، والاستجابة لكل ما يأمر به الحاكم لم يكن أمرا سهلا. بل كان من أصعب الصعاب . فلذلك كانت الخطة الهادفة إلى فرض السيطرة هى القيام بإرهاب شديد وتعذيب وسفك دماء يفوق التصور، ويحدث حالة من الرعب والهلع يحسب كل شخص حسابه، مهما كان شأنه وموقعه بين الأمة.

إن القضاء على المكاسب العظيمة التى جاء بها الإسلام لم يكن يتحقق إلا بإخراج الأمة من الساحة العملية وإنهائها اجتماعيا وسياسيا واستبدالها بأمة مستهلكة فى الفرد تقول «هو» بدلا من «انا» وتأتمر بأمر الحاكم بدلا من أوامر الله وكتابه وسنة رسوله، وبغض النظر عن حقوقها المنصوصة فى الكتاب والسنه معا. إن القيام بمثل هذا التغيير الجذرى فى الحالة الاجتماعية الإسلامية كان يصطدم بصعوبات كبرى وبمواجهة مباشرة بين الأمة والحاكم الجديد. فلذلك كان تنفيذ الخطة يحتاج إلى استعمال القوة بأى شكل وبأى ثمن. ومعاوية كان يعرف صعوبة المهمة وخطرها، فلذلك ابتكر نظاما جديدا كقناع يحجب عن الأمة عظيم المؤامرة، يمكن أن نطلق عليه «نظام الحفاظ على المظاهر الإسلامية، وتدمير القيم الإنسانية». وبذلك تظاهر فى الحفاظ على الإسلام وجميع مظاهره العبادية. فالصلاة كانت تقام فى المساجد وشعائر الحج إلى بيت الله لم تتعطل، ومظاهر الصوم فى شهر رمضان كان واجبا ومفروضا على كل

مسلم، وأذان الصلوات كان يعلو منائر المساجد خمس مرات فى كل يوم، والزكاة كانت تؤخذ عنوة لمن كان يريد الفرار منها. غير أن الجناح الآخر من الإسلام الذى هو الحرية والعدالة الاجتماعية وتقرير المصير وسيطرة الأمة على مكاسبها الاجتماعية والإنسانية فى ظل المساواة والشورى، كان مُدَمّراً كل التدمير. وبذلك اصبحت البلاد الإسلامية التى نَفّذَ معاوية سياسته فيها، بلاداً عليها مظاهر الإسلام، إلا أن الأمة فيها كانت خارج الساحة؛ مأمورة ومطيعة.

إنها هى السياسة التى استمرت أربعة عشر قرنا فى المجتمع الإسلامى، وتسير عليها حتى اليوم أكثرية الأنظمة الإسلامية فى شرق الأرض وغربها. فلذلك نعتقد أن تغيير النظام الذى ابتكره معاوية كان من أطول الأنظمة السياسية فى تاريخ البشرية، وهو ثانى أطول نظام ينفذ على الأجيال جيلا بعد جيل، بعد نظام الملكية فى اليابان. والذى عمره ٢٦٠٠ عام. غير أن الفرق العظيم بين النظام الإسلامى المعاوى وغيره، هو أنه طبق بدقة قارات متباعدة الأطراف فى ظل الحكام والأنظمة الإسلامية والقوميات والأقطار المتعددة طيلة أربعة عشر قرنا من الزمن، أما النظام اليابانى فقد طبق على شعب واحد وبلاد واحدة غير أن هذه الخدعة الجديدة التى أسميناها «الحفاظ على المظاهر الإسلامية، وتدمير لقيم الإنسانية» لم تنفذ بسهولة ويسر، فلقد عرفت الأمة أبعادها، وحصل رد فعل عنيف ضد الحاكم المستبد الجديد. الذى أخذ يغير سيرة السلف الصالح من أمة محمد (ص)، وتناقص. أعماله سيرة الرسول ونظام الخلافة الراشدة بممارساته اليومية، وسحقها لحقوق الإنسان. وكيف انتهى إلى إلغاء أهم بند من بنود الدستور (القرآن الكريم)؛ وهو العمل بالشورى فى انتخاب قائد الأمة، وجعل الحكم وراثيا فى نظام عضوض يرثه ابنه يزيد من بعده.

لقد وقفت المعارضة الإسلامية التى كانت تمثل الأمة جميعا مطالبين بالدستور وأحكامه، منددين بمعاوية وأعماله. فكان الطريق للقضاء على المعارضة الإرهاب والتطميع. واستعمل معاوية الاثنين معا، غير أن التطميع وبذل المال لم ينفع فى أغلب الأحيان فى المسلمين الصامدين، فكان يأتى دور الإرهاب والتخويف والترهيب. أما التخويف فكان يرافقه استعمال القسوة والشدة التى لم يألفها المسلمون منذ أن انتهى عهد الجاهلية، حيث أصبح المسلمون فى عهد الرسول والخلافة الراشدة رحماء بينهم أشداء على الكفار، يحبون بعضهم بعضا، وكان كل واحد للآخر كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضا. وإذا بهذه الأمة تواجه نظاما عنيفا قاسيا، يريد فرض السيطرة عليها بأى ثمن، وبأى شكل. فازدادت المعارضه غيظا ونشاطا لحفظ مكاسب الإسلام مستمدةً القوة من الأكثرية الناقمة على السياسة الجديدة، التى أخذ بتنفيذها الحاكم الجديد الذى وصل إلى الحكم بوعود كاذبة وخدَع كبرى. فكان لا بد من التمسك بذريعة تبرر استعمال العنف والقسوة مع المعارضة.

فبدأ بتصفية المعارضة التيأخذت تنقم على سياسته الجديدة، وسلك طريقا ذكيا غريبا فى فصل المعارضة عن الأكثرية الإسلامية الناقمة. فلأول مرة استعمل معاوية فى الساحة الإعلامية عبارة «شيعة على» ولم يكن يقصد من «شيعة على» آنذاك فى منطق معاوية إلا تلك الفئة التى كانت ترى فى نظامه ما يتناقض مع واقع الإسلام ونظام الخلفاء الذين سبقوه. وأخذ معاوية يسفك دماء المعارضة وتعذيبهم، بذريعة أنه يريد القضاء على «شيعة على».

ومعاوية كان أدرى من غيره بأن القضاء على الذين كانوا يوالون الإمام عليا يعنى القضاء على الأكثرية الإسلامية، ولم يكن بمقدوره القيام بهذا الأمر، لأن المسلمين

آنذاك كلهم كانوا يحبون الإمام على ويوالونه كل الولاء. وعلينا أن نعلم أيضاً أنه بعد استشهاد الإمام على فإن الإمام الحسن الخليفة الشرعى تنازل لمعاوية عن الخلافة، وبايعه مع كل الموالين للإمام على، وذلك لإنهاء الفتنة بين المسلمين وحقنا لدمائهم. فإذاً لم يبق هناك فى الساحة من مسلم كان يوالى عليا وهو يعادى معاوية بعد البيعة معه.

إذاً فإن الغرض من سياسة الإرهاب إنما كان هو استتباب الحكم له بالصورة الاستبدادية، وتأديب كل من يقف ضده بذريعة أنه من «شيعة على» والتمهيد لخلافة ابنه يزيد. ولا شك أن المسلمين كلهم فى ذلك العصر كانوا يتفقون فيما بينهم بأن الخلافة إن كانت بالوراثة فأهل بيت رسول الله وأولاد الإمام على أولى بالخلافة من يزيد بن معاوية.

هذه الفكره التى كانت الشغل الشاغل للأمة آنذاك، كانت تهدد سياسة معاوية بالفشل، لذلك أراد أن يعطى الإنذار الأخير لكل من يقف بوجه نظامه ويعارض رغباته. فقتل الصحابى الجليل حجرالكندى ومعه ابنه وزمرة من أصحابه، وأعطى لهذه الجريمة النكراء ذريعة يعرفها الجميع، وهى أن الكندى كان من أصحاب على ولم يكن يتبرأ منه، فلذلك أوجب قتله. وكلنا نعلم علم اليقين أن معاوية لو كان يطلب من كل الصحابة والتابعين المعاصرين لحجر الكندى أن يتبرأوا من على فما كان أحد يعير لكلامه وزنا. ولكن أصابت القرعة اسم هذا الصحابى الجليل فقتله شر قتلة لكى يكون نذيرا لكل من يقول لا لسياسته الشريرة، ثم ليعلم الجميع أن معاوية لا يفرق بين الصحابى وغير الصحابى إذا ما لزم إهدار دمه.

ومع أن الأمة سكتت فى ظاهر الأمر على هذا العمل الشنيع، إلا أنها كانت تغلى فى واقع أمرها وهى لا تستطيع التعبير، لأن معاوية أنهى دورها فى الساحه بالإرهاب

والتخويف، الذى كان يستعمله بحق المعارضة. ولم يكن غرض معاوية هو قتل الناقمين السياسيين، بل كان يهدف إلى أمر أكبر من ذلك كما قلنا، وهو أن يجعل من الأمة دمية تتحرك بأمره، وترضخ لكل ما يأمر ويريد، ولا يجرى على ألتها إلا ما يتفق وهواه.

وإذا سكتت الأمة على مقتل حجر بن عدى الكندى إلا أن اثنين لم يستطيعا السكوت على هذا العمل القبيح، بل اعترضا أشد الاعتراض ووبخاه عليه أشد التوبيخ، هما الإمام الحسين أولا، الذى كتب له فى رسالة غاضبة:

«ألست القاتل حجرا أخا لكندى والمصلين العابدين الذى كانوا ينكرون الظلم، ويستعظمون البدع ولا يخافون فى الله لومة لائم . . قتلتهم ظلما وعدوانا ..».

والثانى هى السيدة عائشة أم المؤمنين لتى لامته بغضب وعنف عندما دخل بيتها فى المدينة زائرا فقالت له:

« أما خشيت الله فى قتل حجر وأصحابه يا معاوية! ».

ولم يقنع معاوية بقتل الرجال وتعذيبهم، بل ذهب إلى أبعد من ذلك فهو أول من ابتكر التعذيب الجسدى فى الإسلام بعد العهد الجاهلى. فقد روى المؤرخون أن معاوية أمر بسجن آمنة زوجة عمر بن الحمق الخزاعى على أمل أن يسمع زوجها باعتقالها فيسلم نفسه، أو أن زوجته تنهار بمقاومتها فتشى به. فاحتملت عناء السجن سنتين حتى أن استطاع عبد الرحمن بن الحكم لن يظفر بعمر بن الحمق فقتله، وبعث برأسه إلى معاوية فأمر معاوية بأن يؤخذ الرأس إلى السجن ويطرح فى حجر الزوجة، فعندما فعلوا ذلك ارتاعت لساعة من الزمن ثم وضعته بين يديها ووضعت يدها على رأسها وقالت:

«واحزناه . . نفيتموه عنى طويلا واهديتموه إلى قتيلا، فأهلا وسهلا بمن كنت له غير قالية، وانا له اليوم غير ناسية» .

ثم نادت على الحرس وقالت له: عد بالرأس إلى معاوية وقل له تقول لك آمنة:

«أيم الله ولدك وأوحش منك أهلك ولا غفر ذنبك»[1] .

لقد كان هدف معاوية من هذا الأمر فى تعذيبه للنساء، إفراغ الأمة من نصف محتواها الذى هو عنصر الأنثى الذى كان عنصرا فعالا فى ذلك العصر، كى يسهل عليه تطويق الأمة من كل جانب، وإخضاعها لمآربه. ومعاوية هو أول من أنهى وجود المرأة فى الساحة الإسلامية على خلاف ما كانت عليه فى عهد الخلافة الراشدة والرسول الكريم (ص)، حيث كانت المرأة تقوم بأدوار كبيرة فى تسيير النظام الاجتماعى، وتشترك فى غزوات الرسول، وتبايع الخلفاء، وتقوم بأعمال الدعوة إلى الإسلام والتبشير. وكلنا نعلم عن النساء المهاجرات اللواتى هاجرن إلى الحبشة خوفا من المشركين، وقيامهن بالدعوة إلى الإسلام فى تلك الأرض الغريبة، وعلى رأسهن أم المؤمنين أم حبيبة بنت أبى سفيان التى تزوجها الرسول بعد أن مات زوجها عنها. والسيدة خديجة أم المؤمنين التى كانت من أثرياء قريش. وبذلت أموالها فى سبيل الدعوة إلى الإسلام وفى إرساء رسالة زوجها النبى العظيم (ص).

ولا نريد أن نستطرد فى تفصيل دور المرأة البارز فى عهد الرسول والخلافة الراشدة، غير أننا نريد أن نقول إن معاوية هو أول من سلك السياسة الهادفة لإنهاء المرأة من الساحة الإسلامية. وبإنهاء هذا النصف، استطاع أن ينهى النصف الآخر الذى يتمثل فى الرجال.

١- بلاغات النساء لطيفور، وأعلام النساء لعمر كحالة.

ولكى يعطى معاوية بعدا أكبر للقضاء على المعارضة أمر بسب الإمام على على المنابر، وإنى اعتقد جازما أن غرضه من سب الإمام لم يكن إحياء للنعرات القبلية وتشفيا لقتل جده وخاله وأخيه فى غزوة بدر[1]، فمعاوية كان أدهى من ذلك بكثير.

إن سب الإمام على من على المنابر الإسلامية كان يهدف إلى أمور خطيرة لم ينتبه إليها المؤرخون. ولا أهل السير والحديث عبر التاريخ، فقد كان الهدف الأول هو تضعيف الأسرة النبوية والخلافة الراشدة. تمهيدا لإخراج الخلافة من هذين الصنوين، ودفعها إلى من يريد. وثانيا كان يريد التعرف على مناوئى النظام من خلال رد الفعل الذى كان يحدث فى المساجد. فالمعارضة لم تقبل بسب الإمام كما أن الأكثرية الصامتة لم تقبل بذلك أيضاً. غير أن التاريخ، حيث لم يستطع أفرادها السكوت والمجاملة، فكانت تدخل فى قائمة المناوئين لحكم معاوية. فيقتلون بعد ذلك أو يعذبون بذريعة انهم من «شيعة على» أو كان يشترى ضمائرهم ليصبحوا ضمن الموالين للسلطة الجديدة.

ومعاوية كان قد مهّد للقضاء على الخلافة الراشدة، منذ أن اتهم الإمام على بالاشتراك فى دم عثمان، وكانت حرب صفين هى النتيجة التى كان يريدها، حيث كانت تهيئة نفسية للوقوف فى وجه الخليفة الشرعى الذى هو زوج البتول، وأبو الحسنين، ومن بناة الإسلام الأوائل تحت قيادة الرسول (ص).

إذاً فإن معاوية لم يواجه خطرا يهدد حكمه، اسمه «شيعة على» بل كان الخطر من المعارضة الإسلامية التى كانت تمثل الأكثرية وهى الطبقة الجريئة التى كانت تبدى النقد وتبين الواقع. وحينئذ كانت تصفى جسديا. وقد بلغ الإرهاب مرحلة لا تطاق

١- جد معاوية لامه عتبة بن أبى ربيعة وخاله الوليد بن عتبة وأخوه حنظله بن أبى سفيان قتلهم الإمام على يوم بدر.

عندما أراد الدستور فى الشورى وإنهاء السيرة التى سار عليها السلف الصالح، وهى أخذ البيعة قسرا لابنه يزيد كى يكون وليا للعهد، وخليفة من بعده.

لقد كان فى الأمة الإسلامية فى ذلك العهد آلاف من الذين عاصروا الرسول الكريم، وكانوا فى صحبته يوم «غدير خم» حين رجع من حجة الوداع إلى المدينة وهو يخاطبهم بقوله :

«إنى تارك فيكم الثقلين أحدهما أكبر من الآخر، كتاب الله وعترتى، فانظروا كيف تخلفونى فيهما، فإنهما لن يفترقا حتى يردا علىَّ الحوض»[1].

كان من الصعب على معاوية أن يخرج على الدستور ومتممه «القرآن الكريم، والسنة النبوية» إلا بتعطيل وجود الأمة كأمة آمرة ناهية فى الساحة، وفرض نظام جديد يتناقص. مع النظام الذى عوَّد رسول الله (ص) أمته عليه.

ونحن هنا عندما نتحدث عن إنهاء وجود الأمة فى الساحة الإسلامية لا نقصد وجودها المادى أو العلمى أو الثقافى أو تأثيره البناء من هذه النواحى فى الأمم الأخرى. معاذ الله أن نقول كلاما كهذا. فالإسلام وصل إلى حدود فرنسا بعد فتح الأندلس، وفى عهد الخلافة العباسية وصلت الأمة إلى أوج ازدهارها، وكانت بغداد موطن الحضارة المادية واالعلمية والثقافية الكبرى فى ذلك العصر والسلاجقة كانوا يحكمون بلادا شاسعة واسعة ممتدة من سوريا إلى أسوار فيينا وبلاد البلقان وفى الشرق وصل الإسلام إلى تخوم الهند وبفضله أسست الدولة المزدهرة المغولية فيها. فالمسلمون خدموا العلم والثقافة الإنسانية، من خلال تعاليم الإسلام، خدمة عظيمة ودفعوا عجلة المعرفة والحضارة

١ – اخرجه مسلم فى صحيحه.

الإنسانية إلى الإمام، وكانت بغداد ودمشق والقاهرة والأندلس، تشع بالعلم والمعرفة على المجتمع البشرى فى وقت كانت أجزاء كبيرة من أوربا تعيش فى الظلام. وإذا أخذنا بعين الاعتبار ما وراه المؤرخ الكبير «ويل ديورانت» فى تأليفه الضخم «قصة الحضارة» حيث يقول : «إن الفنلنديين حتى القرن الحادى عشر الميلادى كانوا يأكلون لحم الإنسان». هذا فى وقت كانت فيه الحضارة الإسلامية تشع على آفاق بعيدة وعلى أرجاء كثيرة من الأرض، وإذا ما تراجعت تلك الحضارة فيما بعد، لأن المسلمين لم يستطيعوا حفظ المكاسب التى حصلوا عليها، واسترد منهم ما أخذوه، كما حصل فى الأندلس. وفى البلقان وفى أجزاء كبيرة من الهند ومناطق كبرى من الصين.

لقد كانت الضرورة تملى علىّ أن أبين هذا الموضوع بكل وضوح كى لا يثقل الكتّاب الذين لا تروقهم هذه الصراحة على أنفسهم، ويردوا علينا متبجحين بالحضارة الإسلامية فى عهودها الماضية، وأن يعلموا أنه لا ولن يستطيع أى إنسان أن يبخس الحضارة الإسلامية العلمية والثقافية فى العهود التى أشرنا إليها، ولكن فى الوقت نفسه لا يستطيع أحد أن يتباهى بوجود الأمة فى الساحة فى ظل نظام ديمقراطى حر أمر به القرآن الكريم، وسار عليه السلف الصالح من أمة محمد (ص) فى العصور التى أشرنا إليها.

إن الأمة الإسلامية منذ أن استلم معاوية الحكم فقدت كل المثل والمفاهيم المتعلقة بحقوق الإنسان، وحرية الرأى وتقرير المصير. فلذلك كانت الأمة تعيش فى كر وفر. فعندما يكون نصف الإسلام معطلا أو بالأحرى الجناح الآخر للإسلام لا يعمل به، فحينئذ تعيش الأمة تحت رحمة الحاكم. فإذا كان الحاكم جسورا، شجاعا متبنيا للخير سعدت الأمة إلى حد ما فى ظله. وإذا كان فاسقا جائرا فاجرا شقيت فى ظله. وما أقل

النوع الأول من الحكام فى تاريخنا، وما أكثر النوع الثانى. هذا إذا جاز أن نستعمل كلمة الصلحاء فى حق الذين يحكمون الشعب رغما عن إرادتهم، ولو قاموا وأمروا بعمل الخير.

وإذا كان تغيير النظام الديمقراطى إلى نظام استبدادى عنيف أمراً خطيراً وصعبا، ولكنه لم يكن مستحيلا، فلقد شاهدنا فى تاريخنا المعاصر أمما ديمقراطية اختارت حاكمها بطيب الرضى والقناعة، وسرعان ما خانها ذلك الحاكم وجعلها كعصف مأكول. لقد عاصرنا الشعب الألمانى الذى اختار هتلر بالأكثرية الساحقة غير أن هذا الأخير انقلب على شعبه بالاستبداد وحكمه بالنار والحديد، فى ظل النازية التى جعلت من البلاد جحيما. ولذلك نقول بوضوح إن الحضارة المادية شىء، والحضارة الديمقراطية التى تنبع من سيادة الأمة شىء آخر. إن فارس وروما القديمة ومصر والصين وبابل كانت تتمتع بحضارات مادية مزدهرة عظيمة. ولكن الإنسان كان مضطهدا فى ظل تلك الحضارات أشد الاضطهاد، وفى حياتنا المعاصرة شاهدنا حضارة مادية وهى روسيا التى احتلت أعظم المراتب فى القوة المادية، إلا أن الإنسان كان فيها مضطهدا وبائسا.

فالطريقة التى تبناها معاوية لم تكن شاذة فى تاريخ الأمم قديما وحديثا، حيث إن العنف والقسوة وما بحكمها يعتبر الطريق الوحيد لإذلال الشعوب ولامتهانها.

وأعود إلى ما أنا فيه لكى أثبت هنا أن الذين سفك معاوية دماءهم من المسلمين الصالحين. سواء كانوا من صحابة الرسول أو التابعين أو غيرهم وسماهم «بشيعة على» إنما كانوا من المعارضة الإسلامية التى تمثل القاعدة الإسلامية الكبرى، وأعنى الأمة. وهذه المعارضة لا يخلو من وجودها فى الساحة فى أى عصر ومصر، وفى أى امة وملة.

فلذلك كانت الذريعة إلى القضاء على المعارضة هى تسميتهم «بشيعة على». وقد زاد هذا التعذيب والقسوة على المعارضة بعد أن استطاع معاوية أن يصفى وجود الإمام الحسن ويقتله بالسم على يد زوجته جعدة. التى وعدها معاوية بمال وفير، وبالزواج من ابنه يزيد. فعندما نفذت الزوجة الخطة الشنيعة بعث معاوية لها بالمال، وقال لها : أما الزواج بيزيد فلا.. فأخشى أن تفعلى به ما فعلت بالحسن بن على.

ولم تكن هذه أول مرة يستعمل معاوية فيها السم لقتل أجلاء المسلمين، فقد دس السم لمالك الأشتر فى عهد الإمام على، وكانت له كلمته المعروفة : «إن لله جنودا من عسل».

إن تغيير مسار أمة من الخير إلى الشر، ومن الحرية إلى الاستبداد، ومن العدالة إلى الظلم، أمر صعب لا بد أن يسانده دعم روحى يبرز ظلم الحاكم لقبول الأمة بالظلم. أو للحالة السيئة التى تريد أن تنتقل إليها.

وهنا استعمل معاوية دهاءه العظيم بشراء الضمائر التى لم تكن تمتنع عن وضع أحاديث ملفقه ينسبونها إلى رسول الله (ص) للرضوخ إلى الحاكم الظالم، أو السكوت أمامه أو التسليم له أو عدم الأهتمام بشئون الأمة، والاختباء فى المنازل عندما تظهر الفتن أو الأحاديث الاخرى التى كلها تكون فى مصلحه الحاكم االظالم الجائر، والنصيحة للأمة بعدم مواجهته، أو لسكوت عن أعماله. كل هذه الأحاديث بدأت تظهر فى عهد معاوية. تمهيدا لإضفاء الشرعية على نظامه أو حمل الأمة على قبول حكمه.

ولا نريد أن نذكر فى هذا المجال عشرات الأحاديث التى نسبت إلى رسول الله (ص) بل نكتفى بحديثين رواهما البخارى، واختيارنا للبخارى فى هذين الحديثين إنما

هو دليل قاطع على أن مثل هذه الأخبار قد أخذت طريقها حتى إلى كتب الصحاح التى تعتبر من الروافد الأساس فى فقه المذاهب الأربعة الإسلامية.

يذكر البخارى فى كتاب «الفتن» عن ابن عباس ما هذا نصه :

(من رأى من أميره شيئا يكرهه فليصبر عليه. فإن من فاروق السلطان شبرا إلا مات ميته جاهلية) .

عن أبى هريرة عن النبى (ص) قيل :

«شتكون فتن، القاعد فيها خير من القائم، والقائم فيها خير من الماشى، والماشى فيها خير من الساعى».

ويذكر فى كتاب البخارى أيضاً عن انس بن مالك رضى الله عنه فقد شكا إليه ما لقى الناس من الحجاج فقال :

«اصبروا فإنه لا يأتى عليكم زمان إلا والذى بعده شر منه حتى تلقوا ربكم». - سمعته من نبيكم - .

إن من الوضوح بمكان أن وضع هذه الأحاديث كلها لتكون فى مصلحة الحاكم المستبد، والصبر على كل ما يصدر منه، والهدف منها إلغاء وجود وإرادة الأمة من الساحة، وأن تكون مأمورة مطيعة بدلا من أن تكون آمرة مطاعة. وهذه الأحاديث تتناقض مع النصوص الدستورية فى القرآن الكريم من الالتزام بالعدالة ومقاومة الظلم بقوله تعالى:

١- الحج : ٣٩